

UNIVERSAL
LIBRARY

OU **190133**

UNIVERSAL
LIBRARY

أبو العلاء المعري

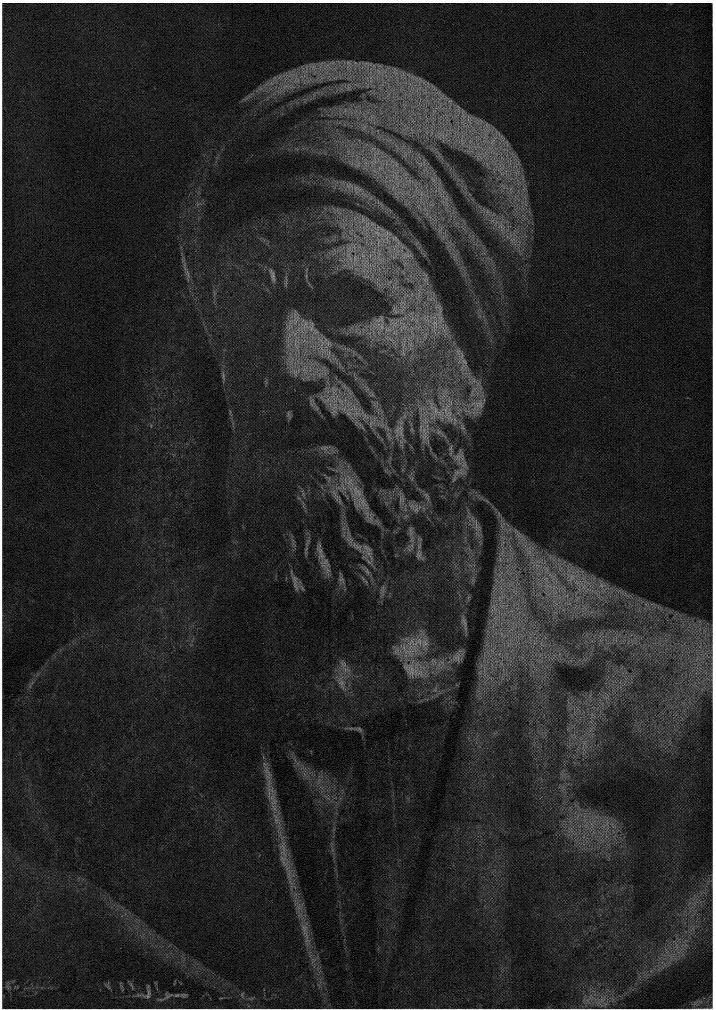
دفاع المؤرخ ابن العمير عنه

ملزمة طبعه ونشره

دار سعة مصب للطباعة والنشر

٧٢ شارع التجارة — تليفون ٤١٤٥٥

١٩٤٥



رهين الحبسين

الإهداء

إلى زعيم التجديد والمفكر الحر الدكتور طه حسين بك

اعترافاً بفضلته العظيم على الدراسات الأدبية ، وعلى البحوث
العلائية بصورة خاصة .

« س »

من رصاص القديس
في عقيدة أبي القلاء

لحى الله قوماً إذا جثتهم بصدق الأحاديث قالوا : كفرا
المرى

المرى جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت .
الشيخ كالدين الزمكاني

دخل على أبي العلاء الوزير المشهور بالمنازى ، فسأله :

ما هذا الذى يرويه الناس عنك ؟

قال : قومٌ حسدوني فكذبوا عليّ .

فأجاب المنازى :

وعلى مَ حسدوك ، وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

قال المنازى :

قال أبو العلاء : والآخرة ؟

ثم أطرق ، ولم يكلمنى حتى قُتُّ عنه .

أفضلُ مَنْ رأيتُه مِمَّنْ قرأت عليه : أبو العلاء

أبو زكريا التبريزى اللغوى

لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على
تسبيح الله وتحميده ، إلا أن أضطرر إلى غير ذلك .
أبو العلاء

قال الحافظ السلفى :

« ومما يدل على صحة عقيدته ما سمعت من الخطيب حامد بن بختيار
النُّميرى بالشمسانية — مدينة بالخابور — قال : سمعت القاضى
أبا انهب عبد المؤمن بن أحمد السروجى يقول :
سمعت أخى الفاضل أبا الفتح يقول :

دخلت على أبى العلاء التتوخى بالمعرة ذات يوم ، فى وقت خلوة
بغير علم منه ، وكنت أتردد إليه ، وأقرأ عليه ، فسمعتة وهو ينشد
من قبلة (١) :

كم بُودرت غادة كهاب^ه وعمرت أمها العجوز^ه
أحرزها الوالدان خوفاً والقبر حرز^ه لها حرير^ه
يجوز أن تُبسط المنايا والخلد فى الدهر لا يجوز^ه
ثم تأوه مرات ، وتلا قوله تعالى :

« إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع

(١) هذه الايات من شعره فى ملق السيل

له الناس ، وذلك يومٌ مشهود ، وما تؤخره إلا لأجلٍ معدود ،
يوم يأتٍ لا تكلم نفسٌ إلاّ بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ »
ثم صاح وبكى بكاءً شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زماماً ،
ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال :

سبحان من تكلم بهذا في القِدم ! سبحان من هذا كلامه !
فصبرت ساعة ، ثم سلمت عليه ، فردّ وقال : متى أتيت ؟ فقلت :
الساعة . ثم قلت : أرى ياسيدنا في وجهك أثر غيظ ! فقال : لا
يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق ، وتلوت شيئاً من
كلام الخالق ، فلحقتني ما ترى . فتحققت صحة دينه ، وقوة يقينه .
الذهبي

« وله مصنفات كثيرة ، أكثرها في الشعر ، وفي بعض
أشعاره ما يدلّ على زندقته وانحلاله من الدين ، ومن الناس من
يعتذر عنه ويقول : إنه إنما كان يقول ذلك مجوناً ولعباً ، ويقول
بلسانه ما ليس في قلبه ، وقد كان باطنه مسلماً »

البداية والنهاية لابن كثير

« .. وصنف بعض الأعلام في مناقبه كتاباً ، وسماه « دفع
المرّة » ، عن شيخ المرّة « ، وفي هذين الكتابين فصول من
نوادير دكائه ، وإجابة دعائه ، والاعتذار عن طعن أعدائه .
وأنا كنت أتعصب له ، لكونه من المرّة ، ثم وقفت له على
كتاب « استغفر واستغفرى » ، فأبغضته ، وازدادت عنه نفرة ،
ونظرت له في كتاب « لزوم ما لا يلزم » فرأيت التبرّى منه أحزم
فإن هذين الكتابين يدلّان على أنه كان لما نظمها هاتماً حائراً
ومذبذباً نافرأ ، يقر فيهما أن الحق قد خفي عليه ، ويودّ لو ظفّر
باليقين ، فأخذه بكلتا يديه . كما قال في مرثية أبيه :
طلبتُ يقيناً من جُهيّنة عنهم ولم تخبرني يا جُهيّين سوى الظنِّ
فإن تعهدني لا أزال مسائلاً فأني لم أعطَ الصحيح فأستغنى
ثم وقفت له على كتاب « ضوء السقط » ، الذي أملاه على
الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني ، الذي لازم
الشيخ إلى أن مات ، ثم أقام بحلب يروى عنه كتبه . فكان هذا
الكتاب عندي مصلحاً لفساده ، موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة
اعتقاده ، فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤولاً ، ويتلو لمن وقف
عليه بعد كتبه المتقدمة « وللآخرة خير لك من الأولى » ، فلقد

ضمّن هذا الكتاب ما يثلج الصدر ، ويلذُّ السمع ، ويقرُّ العين ،
ويسرُّ القلب ، ويطلق اليد ، ويثبت القدم ، من تعظيم رسول الله
« ﷺ » خير بريته ، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذريته ،
وتبجيل الصحابة والرضا عنهم ، والأدب عند ذكر ما يتلقى منهم ،
وإيراد محاسن من التفسير ، والاقرار بالبعث ، والاشفاق من اليوم
العسير ، وتضليل من أفكر المعاد ، والترغيب في أذكار الله
والأوراد ، والخضوع للشريعة المحمدية وتعظيمها ، وهو خاتمة
كتبه ، والأعمال بخواتيمها .

وقد يُعذر من ذمّه ، واستحل شتمه ، فإنه عول على مبادئ
أمره ، وأواسط شعره . ويعذر من أحبه ، وحرّم سبّه ، فإنه اطلع
على صلاح سرّه ، وما صار إليه في آخر عمره : من الانابة التي كان
أهأها ، والتوبة التي تجبُّ ما قبلها

وكان يقول — رحمه الله — : أنا شيخ مكذوب عليه .
ابن الوردي



قال غرس النعمة :

وأذكر عند ورود الخبر بموته ، أننا قد تذاكرنا إحداه ، ومعنا
غلامٌ يعرف بأبي غالب بن نهبان ، من أهل الخير والفقّه ، فلما كان
من الغد حكى لنا قال :

رأيت في منامى البارحة شيخاً ضريراً ، وعلى عاتقه أفعيانٍ
متدلّيان الى نخديه ، وكل منهما يرفع فمه الى وجهه ، فيقطع منه
لحمًا يزدرده ، وهو يستغيث . فقلت وقد هالني : من هذا ؟

فقبل لي : هذا المعري الملحد !

الذمبي

*
*
*

«وكم من زنديق في قلبه حقدٌ على الاسلام، خرج فبالغ واجتهد
فزخرف دعاوى يلقي بها من يصحبه ، وكان غور مقصده في
الاعتقاد الانسلال من رِبقة الدين ، وفي العمل نيل الم لذات ،
واستباحة المحظورات . فمنهم بابلك الخرمي ...»

ومنهم من لم يبرح على تعثره ، ففاته الدنيا والآخرة ، مثل
ابن الراوندى ...

وأما أبو العلاء المعري فأشعاره ظاهرة الالحاد ، وكان يباليغ
في عداوة الأنبياء ، ولم يزل متخبطاً في تعثره ، خائفاً من القتل ،
إلى أن مات بخسرانه .

.. وقد رأيت لأبي العلاء المعري كتاباً سماه «الفصول

والغايات « في معارضة السور والآيات ، على حروف المعجم في آخر
كلماته ، وهو في غاية الركاكة والبزودة ، فسبحان من أعمى بصره
وبصيرته ! »

ابن الجوزي

رفض الدنيا وما سلم ، ورفض غاياتها فعمل بما علم ، وتداوى
باليأس من مطامعها ، ودارى الناس بترك حظه لهم ، ومع هذا ظلم .
ابن فضل الله العمري

قال ابن الجوزي :

قال لي المعري :

وحدثت عن أبي زكرياء أنه قال :

ما الذي تعتقد ؟

فقلت في نفسي : اليوم يتبين لي اعتقاده !

فقلت له : ما أنا إلا شك !

فقال : وهكذا شيخك . . .

أبو القلاء والفكر

أبراهام في رآة هاسد

حين أطلق فيلسوف المعرفة لفكره العنان في الكشف عن خصائص الطبع البشرى ، وتمزيق الغشاء الذى يجب حقائق المعتقدات ، قامت عليه دينياً العقول المتحجرة ، وأخذت الأفهام البليدة ترميه بالزفدقة وتسلقه بالسنة حداد ، ولم يتورع خصومه أن يلصقوا به التهم جزافاً وينعتوه بأبشع النعوت .

قال بعضهم : من هذا الأعمى الذى يتجرأ على قدسية المعتقدات ؟ وقال آخرون : من هذا الملحد الضال الذى حرّم أكل اللحوم وذبح الحيوانات ؟ أ يكون أرقّ عاطفة وأدقّ فهماً من الرسل والأنبياء ؟ ... وانها لوالا عليه سباً وكيدا ، ولم يتورع صاحب « فلك المعانى » أن ينعتة بالعتة والجنون^(١) كما نعتة للقاضى أبو جعفر بما هو أبشع من العتة والجنون^(٢) .. فمن قصص

١ - معجم الادباء ج ١ ص ١٩٤ طبعة مرغليوث ، وفي عصرنا هذا نعت زكى مبارك أستاذه الدكتور طه حسين بالجهل كما نعت الاستاذ أحمد أمين مؤلف لجر الاسلام بمنايته على الادب ، ولله فى خلقه شؤون !

٢ - الباخريزى فى دمية القصر، وقد نقل هذا النص المرحوم أحمد تيمور باشا فى كتابه

مزرية تصوره في طليعة المعطلة ، الى أحاديث مختلفة تصوره في عين الدهاء آلة تهدم أسس الدين ، إلى غير ذلك مما يضعه في زمرة الكفرة المتهمين !

ولم يعبأ شاعرنا بقالة خصومه ، وهو الذى خبر الناس وعرف طوايا البشر ؛ كان لا يسأل عن هذا ولا ذاك ، لقد لزم بيته بعد أن طوّف في مختلف البلدان وبلغ القمة من المجد العلمى والأدبى . نعم ، لزم بيته ، أو قل لزم سجنه الضيق يتلى فى الأدب والحكمة والفلسفة . وكأنه كان يقول : ما شأنه والجدل ؟ إن غيره من كبار المفكرين والهداة المصلحين قد مرّوا بهذه الطرق الشائكة . والمفكر الحر من لا يعطى للجهال ومن هم فى طبقتهم أية قيمة ، ومن لا يصغى الى تقيتهم ، ومن لا ترتعد فرائضه أمام صيحاتهم ، بل عليه أن يسير فى النهج السوى يكتب ليقوم الطبع البشرى وليسمو به فى طريق الكمال .

وقد أملى المعرى فى ذلك آيات صادقة ، أملى اللزوميات وأملى الفصول والغايات ، وأملى ملقى السبيل ، بل أملى عشرات الرسائل ومثاتها ، وكلها تصوير دقيق لطباع البشر وأهوائهم — هذه الطباع التى استعصى إصلاحها على الحكماء ، وعجز الفلاسفة

وحتى الأنبياء عن تقويم عوجها . أترى يظل الطبع البشرى فى انحرافه واعوجاجه ؟ أم ماذا ؟ لا أعلم . . فمن عهد الأغرقة ، ومن قبل الأغرقة بمئات الأحقاب إلى يومنا هذا ، كتب آلاف المفكرين فى ختل البشر وخساسة طبعه وفيما يودى إلى تقويم هذا الطبع ، ولكن الانسان ظل كما هو ، ظل فى عنجهيته الأولى . والذى أعتقد أنه سيظل على انحرافه اليوم وغدا وإلى أن تطوى البشرية ويلفها العدم فى طياته الجون . وإن صيحات الفلاسفة والمفكرين ، ومحاولات الساسة والمصلحين ، ماهى إلا نزوات ألم أحيانا وبوارق أمل أحيانا أخرى — ألم مما تعانىة البشرية من انحدار ، وأمل فى الاصلاح والتسامى بالانسان إلى مثل عليا .

هذه الآلام التى جاشت فى صدر المعرى فأملأها وذهبت آية فى الإبداع والخلود ، هى التى ألّبت عليه خصومه فأوغلوا فى سبه والتهجم عليه ، وعدّوه فى زمرة الضالين المعطلين ، وهى التى وضعتة أيضا فى مصاف العباقرة فزاد محبوه وتلامذته ورفعوه إلى مرتبة الهداة المصلحين . نعم ، كان المنصفون يتلون ما أملاه بفهم ووعى ، وكان الجاحدون يفسرون أقواله تفسيراً ضيقاً يتلاءم وخبيلهم . وهذا الذى جملة يخاطبهم بقوله :

لحى الله قوما إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا: كفر
وتشدد ثورته فيصرخ :

أما فى الأرض من رجل لبيب فيفرق بين إيمان وكفر
أما فى الأرض من رجل لبيب ؟

مهلا شيخنا الحكيم ، وخفف قليلا من تشاؤمك ، فلم تخل
الأرض فى يوم ما من رجل لبيب منصف يفرق بين الايمان
والكفر . وها هوذا نصيركم ، ابن العديم ، المؤرخ الحلبي ينبرى
للدفاع عنكم بعد قرنين من وفاتكم ، يكتب سيرتكم ويردّ على
خصومكم ؛ فنجد هذا اللبيب المنصف الذى يفرق بين الايمان والكفر .
لقد كتب ابن العديم رسالته الطريفة « الانصاف والتجرى ،
فى دفع الظلم والتجرى ، عن أبى العلاء المعرى » فكانت من أبلغ
ما كتب عن فيلسوف المعرة فى القرن السادس للهجرة

ولدفاع ابن العديم قيمته : فهو قريب العهد بالمعرى ، وهو
حلبي ، وهو أديب واسع الاطلاع ، وفقهه مجتهد ، وعالم متزن الفكر ،
وشاعر يتذوق الأدب ، ويملك ناصية الصنعة ، ومؤلف كتب فى
شؤون الفكر ، كتب فى التاريخ فأبدع ، وكتب فى غير التاريخ

فأطرب ، وقد قرأ جميع كتب المعري أو أكثرها قراءة فهم ووعي ،
فآلمه أن يصبح هذا الفيلسوف الحكيم مضغعة في أفواه الجهلاء ، وأن
تفسر آراؤه على غير مقصدها ، فما هي وجهة دفاع هذا المؤرخ
الأديب عن شاعرنا الفيلسوف الحكيم ؟

* * *

قبل الالمام إلى ذلك نريد أن نقول كلمة في ابن العديم ، في
نشأته ، في مكانة بيته ، في مولداته وفي عصره ، فيما رافق هذا العصر
من أحداث سياسية ، فان الحديث في ذلك لا يقل طلاوة عن الحديث
عن أبي العلاء .

كمال الدين الطفل

ولد كمال الدين بن العديم في اليوم العاشر من شهر ذى الحجة سنة ٥١٨ هـ في مدينة حلب ، ولولادته ، أو لطفولته ، قصة تروى في الحديث عنها بعد أن نال إعجاباً سريعاً إلى مكانة عائلته ، هذه العائلة التي اشتهرت بالعلم والفضل ، وكان منها الشاعر والأديب والقاضي . وكما اشتهرت عائلة أبي العلاء بهذه الخصائص الفاضلة ، اشتهرت عائلة ابن العديم بهذه الخصائص أيضاً . وقد نذكر عشرات من آل العديم وآل المعري وكلهم أديب ، شاعر ، فاضل . وهذه ميزة تختص بها بعض العائلات فتوارث العلم كبراً عن كبر ، ولكل واحد نهجه وطريقته : هذا شاعر ، وذاك فقيه ، وغيره متصوف ، وسواه محدث ، وكلهم فروع زاكية وأغصان باسقة من شجرة كريمة الأصل والنजार . وفي تاريخ الآداب العالمية أسرته توارث أفرادها العلم والآداب جيلاً بعد جيل ، قال مديشي في فلورانس وآل كوبريلي زاده في استنبول وغيرهم وغيرهم كثيرون .

نشأ كمال الدين بن العديم في بيت علم وفضل ، وظل هذا

البيت يتوارث أفراد العلم أربعة قرون كاملة . كان جده الأكبر من سكان البصرة ، نزع عنها بعد المائتين للهجرة في تجارة إلى الشام ، وفي رواية أن طاعوناً نزل بالبصرة ، فخرج منها جماعة من بني عقيل وقدموا إلى الشام فاستوطن جدهم الأكبر حلب ، ومنذ ذلك العهد حتى القرن السادس والسابع وآل العديم في حلب والبلاد العربية تتحدث عن مزايا هذه العائلة . نعم ، منذ ذلك العهد وفروع هذه الشجرة تورق وتؤتي أطيب الثمار ، فأبو المجد ، وأبو الحسن ، وأبو علي ، وأبو البركات وكثيرون من أعمامه وأجداده - كلهم شاعر ، فقيه ، أديب ، له في الحياة العقلية أثر مسطور ؛ ولسنا هنا في مجال الحديث عن تلخيص كل فرد من أفراد هذه العائلة - ولكل واحد سيرة تعبق بالأدب - بل يتناول حديثنا مؤرخ حلب الذي كتب أبلغ دفاع عن شاعر المعرة وفيلسوفها الحكيم .

وإذا كنا أهملنا الكلام عن أفراد عائلته فرداً فرداً فسياق سيرة يقضي أن نتحدث عن أبيه القاضي أبي الحسن بن أبي جراحة لما في الحديث عنه من ارتباط بسيرة مؤرخنا كمال الدين . لقد كان القاضي أبو الحسن خطيب قلعة حلب في عهد نور الدين محمود بن زنكي ، ثم خازن المملكة على أيام ولده الملك الصالح إسماعيل ، ثم قاضيها

في أيام الملك الصالح ، وظل قاضياً في جميع العهود التي تصرمت من من عهد دولة عز الدين إلى عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، أي كانت تزول دولات الملوك ودولة أبي الحسن في القضاء وطيدة الأركان .

وقد يهم القارئ أن يعلم أن والد كمال الدين قد تولى هذه المناصب الخطيرة : خطيب القلعة وخازن الدولة وقاضي قضاة المملكة وهو في العقد الثالث من عمره ، ولكن التقاليد « المذهبية » — إن صح هذا التعبير — قد ذر قرنها في تلك الأيام ، فقد كان قاضي حلب « حنفي المذهب » وكانت الدولة « شافعية » فهل يشفع له علمه ومكانة عائلته في المحافظة على مركزه في الدولة ؟ يظهر أن كل ذلك لم يشفع له ، وعُزل عن منصبه ، لا لشيء إلا لأنه « حنفي المذهب » !... وما كان ذلك ليؤثر فيه ، لأن له من ثروته وجاهه وعلمه ومركزه ما يغنيه عن التكسب من مال الدولة أو تحمل أعبائها ، ووقع في بيته يقطع الوقت بالمطالعة والدرس والإشراف على أملاكه وزراعته والإذعان لأحكام القدر

وبينا هو في هذه الحياة الحرة الطلقة من كل قيد ، إذ نبأ سار ترقص له القلوب . فقد انبثق فجر اليوم العاشر من شهر ذي الحجة

سنة ٥٨٨ هـ عن مولود أشاع البشر في بيت آل العديم .
تقبّل القاضى أبو الحسن هذه البشرى برعشة المضطرب
غير المطمئن ، بكى فرحاً حين بُشر بمقدم كمال الدين ، وتساءل
همساً بينه وبين نفسه :

أى سعادة تنتظر هذا الوليد ؟ أتُكتب له الحياة أم يلفه العدم
قبل أن تكتحل عيناه بمباهج الوجود ؟
ولهذه الوسوس قصة سيأتى حديثها بعد قليل .

بهذا البيت ، وما هذا الحبل الممدود إلا هذا الولد السعيد . . .
ومرّت أيام ، وكأنّ المولى أراد أن يتمتحن هذا الرجل ، أن
يتمتحن صبره وجلده على ملاقاتة الكوارث والأحداث ، ولأمرٍ لا يعلمه
إلا الله - جلت قدرته - استلّ القدر هذا المولود من بين
أحضان أمه ولما يشبّ عن الطوق . وتصور : أيها القارئ ،
أى حزن دهم الأب وأية فاجعة نزلت بالألم ؟ وماحالة هذه الأسرة
التي انقلب فرحها حزناً ، وسعادتها شقاءً ، وأملها يأساً ، ونهارها
ليلاً مظالمًا . لقد اسودّت الدنيا في عين هذا الشيخ الكبير ولم يعد
يهمّ لشيء من زخارف الدنيا ، فلا المال ، ولا الجاه ، ولا القضاء ،
ولا المجد ، ولا شيء كان يسليه عن فلذة كبده ، وقد حزن حزناً
عميقاً هدّ قواه وأصابه مالم يصب والدًا على فقد ولده ، فامتنع عن
الطعام والشراب إلا ما يقيم هذا الجسم الضاوي ، وجلس في بيت
مظلم لا يستقبل أحداً ، ولا يفكر في أحد إلا في هذا المصاب الجلل ،
وكان لا يسمع منه غير الأنين والبكاء .. وأى بكاء ؟ .
كانت أيامه تمر بين ترتيل كلام الله العزيز ، والصلاة بخشوع ،
وزيارة المقبرة . وهمّ في يومٍ ما ، وهو في المقبرة ، وقد غلبه الحنين ،
ولجّ به الشوق ، وعصاه الصبر - همّ أن يخرج فلذة كبده من القبر
ليروى غليل شوقه وينعم برؤيته .

وبالرغم مما كان عليه الشيخ ، من قوة وجبروت ، امتنع عليه الحجر ، ولم يستطع أن يكشف القبر ، وأدرك بإيمان عميق — وهو من صفوة العلماء — أن الله جلت قدرته أراد ذلك شفقة منه على الطفل وعليه ، فزجر نفسه . وعاد متعباً مكدوداً ، عاد إلى البيت يبكي همساً ويصلي ، وما زال حتى ارتدى على فراشه وهو في غاية الإعياء . . .

وبدهي وهو في هذه الحالة ، أن يستيقظ عقله الباطن على الرؤى والهواجس ، وطبعي أن تتراءى له الأحلام وهو في غفوته اليقظة ، ورأى في تلك الليلة رؤيا أرعبته أولاً ، ولكن ما لبثت أن شفته من مرضه . . .

ماذا رأى ؟

ماذا سمع ؟

رأى ولده . . رأى فلذة كبده ، وسمع صوته .

نعم خيل إليه أنه يخاطبه بقوله :

يا أباي . . عرف والدتي أنني أريد أن أجيء اليكم . . .

واستيقظ أبو الحسن مذعوراً ، وركض إلى زوجه يريد إيقاظها ، ولم تكن الأم المفجوعة نائمة ، فهي أشد لوعة على ولدها من أبيه ؛

وما كاد يقصّ عليها نبأ الرؤيا حتى بكيا بكاء شديداً (١)

أكانت هذه الرؤيا إيذاناً بانتهاج المصيبة؟

ألم يكف هذين الأبوين تذراف الدموع؟

لقد ذاقا حلاوة الحياة ومرارتها فأيقنا أن كل مجد في هذه الدنيا زائل ما خلا وجه الخالق الكريم ، وأن الحياة مزاج من الخير والشر ، وأنه لا توجد سعادة كاملة ولا شقاء كامل ، وأن على المرء أن يدرب نفسه على هذه الأحداث ، أحداث الحياة التي لا ترحم والتي لا تسير على وتيرة واحدة . وكأنه كان يردد قول أبي العتاهية:

اصبر لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور

فرح وحزن مرة لا الحزن دام ولا السرور

وتشاء إرادة المولى — والشيخ على هذه الحالة من صوفيته

المتجردة — تشاء الإرادة الأزلية أن ترأف بهذين القلبين الكسيرين

فتمنّ عليهما بولد نحيف ؛ ضعيف البنية ، تكاد تحسبه شبحاً من

الأشباح .

ولعل القارئ أدرك أن هذا المولود هو كمال الدين بن العديم

مؤرخ حلب الذى استفاضت شهرته فى الآفاق وكان من أمره ما كان .

قال والده :

«عندما ولد كمال الدين لم يكن بقاى بحلاوة ذلك الأول ، لأنه كان نحيفاً»

وكان الأب ، وقد مرت به تلك المصيبة قدّر أن هذا الولد لن يسلم له ولن تقرّ به عينه ، ومع ذلك شكر الله على نعمته وفضله ، وبدأ الطفل يحبو ويكبر ، « وكما كبر ، نبل جسما وقدرأ ، ودعا له عدة دعوات ، وسأل المولى له عدة سؤالات ؛ ورأى فيه ، والحمد لله ، أكثرها» ... نعم ، كما نما الطفل وترعرع تضاءلت أحزان الأب . وفي يوم ما زاره أحد أصدقائه المقربين ، وكان الطفل يلعب به ، فما كان منه إلا أن تمنى له أن يراه قاضياً كما كان عليه آباؤه .. ولم تنزل أمنية الصديق من نفس الأب منزل الرضا ، فما كان منه إلا أن أجاب صديقه على البدهاة بقوله :

« ما أريد له ذلك ، ولكنى أشتهيه أن يكون مدرّساً »

وكان الأب ، وقد ثارت في نفسه تلك النزوة اقدمية - نزوة تنحيته عن منصب القضاء لمذهبيته - لم يشأ لابنه أن يصبح قاضياً ، ولكن الأقدار خيبت مشيئة الأب وحققت أمنية الصديق الذى تمنى أن يرى ابن صديقه قاضيا ، كما كان آباؤه . ووصل كمال الدين ،

بعد موت أبيه ، الى مالم يكن يحلم به أحد ، فقد تخطى مجده كل أمجاد أسرته ، وبنى مجداً سما به الى الآفاق وخلص اسم آل العديم على العصور .

يصف ياقوت كمال الدين بقوله :

« إن الله عزّ وجلّ عنى بخلقته فأحسن خلقه وحُلقه ، وعقله وذهنه وذكاءه ، وجعل همته في العلوم ومعالي الأمور ، فقرأ الأدب وأتقنه ، ثم درس الفقه فأحسنه ، ونظم القريض فجوده ، وأنشأ النثر فزيّنه ، وقرأ حديث الرسول وعرف علله ورجاله وتأويله وفروعه وأصوله . وهو مع ذلك قلبي البنان ، جواد بما تحوى اليدان ، وهو كاسمه كمال في كل فضيلة ، لم يعتن بشيء إلا وكان فيه بارزاً ، ولا تعاطى أمراً إلا وجاء فيه مبرزاً ، مشهور ذلك عنه لا يخالف فيه صديق ، ولا يستطيع دفاعه عدو . وأما قراءته للحديث في سرعته وصحة إيرادهِ وطيب صوته وفصاحته فهو الغاية التي أقر له بها كل من سمعها ، فانه يقرأ انخط العقيد كأنه يقرأ من حفظه . وأما خطّه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقلة لأبي عبد الله بن مقلة ، و بدر ذو كمال عند علي بن هلال .

خلال الفضل في الأمجاد فوضى ولكن الكمال لها كمال ...

وإذا كان التمام من خصائص عالم الغيب ، وكان الانسان لا بد له من عيب ، فعليه لطالب العنت والشين ، أنه يخاف عليه من إصابته العين . هذا مع العفاف والزمت ، والوقار وحسن السمات ، والجلال المشهور عند الخاص والجمهور .
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ولداته عن ذلك في أشغال (١)

... في هذه الخطوط السريعة التي رسمها ياقوت صاحب « معجم الأدباء » صور جليلة عن عبقرية هذا الشاب الفذ الذي لم يكد يبلغ العقد الثاني من عمره حتى وصل إلى القمة ، وفي تاريخ حياته نقرأ صفحات قوية من تاريخ حلب في العصر السادس — تاريخها السياسي ، وتاريخها الأدبي معا .

أسفار ابيه القديم. نشأة علمية مؤلفاته

هذا الشاب الذي نشأ في بيت علم وفضل ، قد أولع منذ صغره
بالأسفار ، وما كان والده ليحول دون تحقيق رغباته على ما في السفر ،
في تلك العصور ، من مشاق ومتاعب ، فلم يكد يتجاوز الخامسة
عشرة من عمره الغض حتى قام برحلة إلى بيت المقدس ، سافر إليها
سنة ٦٠٣ هـ ثم عاد فسافر مرة ثانية بعد خمس سنوات ، وكان بغيته
من السفر ليست التجوال والتفرج في البلدان فقط ، بل طلب العلم من
الأئمة العظام ، مع درس الحالة السياسية ، والحالة الفكرية في دمشق
والقدس ومعرفة ما كانتا عليه من الاضطراب والغليان .. وقد اتصل
بطائفة من علماء دمشق والقدس وأخذ عنهم ما وعت صدورهم من
كنوز العلم ، وربما طلب إليهم أن يجيزوه في بعض العلوم فلم يدخلوا
عليه لما رأوا فيه من ذكاء والمعية .

وعنى والده بتربيته ، منذ صغره ، تربية علمية ، وتنشئته على غرار
آبائه وأجداده ، وكان يفرض عليه حفظ طائفة من الكتب فحفظ
« اللع » وحفظ « القدوري » وهما كتابان في الفقه — حفظهما في

مدد قصيرة ، وحفظ غيرها ، كما حفظ القرآن ، وحفظ كتاب الله ميمزة في آل العديم ، فما منهم واحد إلا انطوى صدره على آياته المحكمة^(١) .

وعرف كمال الدين بين أترابه بالسبق ، وكان شديد الاتصال بعلماء عصره ، سمع الحديث عن أبيه وعمه أبي غانم وابن طبرزد والافتخار والكندی والخرستانى ، وسمع جماعة كثيرة بدمشق وحلب والقدس .

وأصبح مرموق القدر بين العلماء ، ونيط به التدريس في أعظم مدارس حلب ، وهو في الثامنة والعشرين من عمره (وحلب أعمار ما كانت بالعلماء والمشايخ والفضلاء الرواسخ ، فألقى الدروس نجان قوى ، ولسان لوذعى . فأبهر العالم وأعجب الناس) (٢) .

وأخذ كمال الدين يؤلف في هذه السن المبكرة ، فكتب للملك الظاهر كتاب « الدرارى في ذكر الدرارى » وقدمه إليه هدية يوم ولد ولده الملك العزيز الذى وسدت إليه سلطنة حلب بعد أبيه ، كما

(١) في معجم الأدباء ج ٦ ص ١٩ : حدثني كمال الدين أبو القاسم ؛ قال حدثني جمال الدين أبو غانم محمد بن هبة الله بن محمد أبي جرادة عمي قال : لما ختمت القرآن قبلني والذى بين عيني وبكى وقال : الحمد لله يا ولدى ، هذا الذى كنت أرجوه فيك ؛ حدثني جدك عن أبيه عن سلفه : انه ما منا أحد الى زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من ختم القرآن .

(٢) معجم الادباء ج ٦ ص ٤٠ طبعة مصر

كتب كتاب « ضوء الصباح في الحث على السماح » صنفه للملك الأشرف ، وحين أنعم النظر في جمال خطه رغب في رؤيته ، ولما مثل بين يديه أحسن إليه وأكرمه ، وخلع عليه وشرفه .
وهكذا ، بدأ نجم ابن العديم يلمع ، وأخذ صيته يدوى ، وأحبه العلماء والملوك . وكأما كان التأليف نزعة من نزعات هذا الشاب النبوغ ، فلا يكاد ينتهى من وضع كتاب حتى يبدأ بوضع كتاب آخر .

وقد طلب إليه ياقوت الرومى أن يؤرخ آل العديم الذين يتصل نسبهم ببني جرادة ، فكتب في أسبوع واحد كتاب « الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة » وهو الكتاب الذى اعتمد عليه في تدوين أخبار بني العديم ، وإذ عرف بجودة الخط ، وكان للخط الجميل أثره ، وضع كتاباً فى الخط وعلومه ، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه ، وما جاء فيه من الحديث والحكم . كما كتب تاريخ حلب ، ضمنه أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ، ومن كان بها من العلماء ، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب ، كما كتب كتاب « تدبير حرارة الأكبادة ، فى الصبر على فقد الأولاد » ولا شك أنه صور فيه لواجع الحزن فى صدر أبيه ؛ ودموعه الحرى على فقد أخيه .

وقد ألف ابن العديم في شتى صنوف العلم ، وكانت نزعته إلى التاريخ أغلب ، ولعل أعظم كتبه وأوفاهها كتابه عن تاريخ حلب ، لقد كان هذا الكتاب آخر ما ألفه هذا العالم المؤرخ الأديب ، ولم تكن السياسة وأعمال القضاء لتشغله عن التأليف ، والتأليف ظاهرة غريبة يمتاز بها بعض العباقرة ، فلا تمرّ الفكرة في خاطرهم حتى تتسع وتتجسّد وتستحيل كتاباً له أثره ، وله قيمته ، وقد يخلد مع الأيام . وابن العديم كان من هذا النفر ، فقد وهبه الله الذكاء والدراية وعاش في بيئة علمية مكنته أن ينهج نهج آبائه وينسج على طرازهم ، وشاءت الأقدار أن تتحقق أحلام أبيه فيرى ولده في منصب رفيع يحسده عليه الكثيرون ، ولا شيء يقرّ عين الأب ويجعله في فيض من السعادة أجمل من أن يرى نجم ولده آخذاً في الالتماع وهو في قيد الحياة . وهكذا كان . ويظهر أن المهام الرسمية لم تشغل ابن العديم عن التدوين والتأليف . نعم ، لم يشغله منصب قاضي القضاة ، ومنصب الوزارة حيناً ، والسفارة حيناً آخر ، عن التدوين ، بل كان ذلك مما زاد في نشاطه .

يقول العلامة محمد كرد علي : « وكان جميع أهل هذا البيت - بيت ابن العديم - منذ كان الإسلام يحفظون الكتاب العزيز ، وقد

تولى خمسة منهم على التوالي منصب قاضى القضاة بحلب ، وكان كمال الدين واسطة عقدهم ، واستغل بالسياسة والعلم فتولى الوزارة مرتين الأولى للملك العزيز ، والثانية للناصر آخر بنى أيوب ، وذهب بالسفارة عنهما إلى بغداد والقاهرة . ولا يتولى الوزارات فى الغالب إلا الأ كفاء ، ولا ينوب عن صاحبه إلا الأرباب الكفائات المعترف بها وقد ألف كمال الدين وصنف وكتب بخطه الجيد ألوفا من الصفحات ، ومن جملة ما كتب بخطه البديع ثلاث خزان من الكتب واحدة لنفسه ، وخزانتان لابنيه ، لكل منهما خزانة ، فإذا افترضنا - الافتراض لكرد على - أن كل خزانة تضم مئة مجلد ، وهو أقل تعديل ، فيكون مجموع ما كتب ثلثمائة مجلد ، عدا تأليفه الممتعة التى نمت على تحقيقه وبحثه ، ولم نعرف منها سوى ثلاثة :

١ - الأول من كتبه : دفع الظلم والتجربى عن أبى العلاء المعرى

٢ - تذكرة ابن العديم : وهى مفقودة وجد منها مجلد فى بضعة

أجزاء أولها : الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر ، وفيها فوائد أدبية وتاريخية كثيرة ، وهى جديرة بالطبع .

٣ - أمّا الكتاب الثالث الباقي من تأليف مؤرخنا فتاريخ

« زبدة الحلب فى تاريخ حلب » وهو من أحسن كتبه ، ولم يبيضه ،

وفيه كلام عن جغرافية بلاد حلب وبحيراتها وجبالها وترتها وهو أنها ومائها وخراجها وعادياتها، وذكر فيه مدنا تمتد اليوم من كليكا والجزيرة مع أنها من أعمال حلب، مثل أذنة والكنيسة السوداء وطرسوس وسيس والحدث الحمراء وملاطية وسميساط ورعبان ودلوك إلى غير ذلك من الحصون والبلاد. وتكلم على جيحان نهر المصيصة وسيحان نهر أذنه والعاصى نهر أنطاكية وحماة والبردان نهر طرسوس، وبذلك عرفنا أن عمل حلب في عهده كان واسعاً جداً أكبر من مملكة من الممالك الصغرى لعهدنا، وفيه فصل من أجل فصول الكتاب فيمن نزل من قبائل العرب بأعمال حلب ومن كان قبلهم»^(١)

يقول ابن الشحنة في تأليف ابن العديم في تاريخ حلب :

«إن كمال الدين بن العديم أتقن في تاريخه وأجاد وأطال ولم يبيض منه إلا اليسير، وأطال فيه من ذكر الروايات والظرف، فجاء بمعنى قليل في لفظ كثير، ولم يسبقه أحد بتاريخ لها على الخصوص، وسمّاه «بغية الطلب في تاريخ حلب» رتبته على حروف المعجم»

ويقول : «إن مسودته كانت تبلغ نحو أربعين جزءاً كباراً

والمبيضة تجيء كذلك ، لكن اخترمته المنية قبل إكمال الأمانة ؛
وتفرقت أجزاءه قبل الفتنة التيمورية .

ويقول صاحب كشف الظنون^(١) في إلماعه إلى من كتب في
تاريخ حلب :

« إن أول من صنف فيه على مافى « الدر الحلب » كمال الدين
أبو حفص عمر بن أبي جرادة عبد العزيز المعروف بابن العديم الحلبي
المتوفى سنة ستين وستمائة ، جمع فيه أعيانها على ترتيب الأسماء »
قال اليونيني في الذيل : يكون بياضه في أربعين مجلداً ، ومات
وبعضه مسودة . وسماه « بغية الطلب » ، ثم انزع منه كتاباً سماه
« زبدة الحلب » ثم ذيله القاضي علاء الدين أبو الحسن على بن سعد
الجبريني الشهير بابن خطيب الناصرية المتوفى سنة ثلاث وأربعين
وثمانمائة ، وسماه « الدر المنتخب » وهو أيضاً على الحروف .

ويتضح الحاجى خليفة الشهير بكاتب حلبي صاحب كشف
الظنون فى ذكر جميع المؤرخين الذين كتبوا عن حلب ، فيبين
أنهم اعتمدوا جميعهم ما كتبه ابن العديم ، فيقول :

(١) ج ١ ص ٢٩١ طبعة استانبول

« ولما طالعه - أى كتاب ابن العديم - الحافظ أبو الفضل أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى حين قدم حلب سنة ست وثلاثين وثمانمائة ألقى فيه أشياء كثيرة ، كما ذكره فى ديباجة « أنباء الغمر » وأثنى على صاحبه ، ثم ذيله موفق الدين أبو ذر أحمد بن إبراهيم الشهير بسبط بن الرجمى الحلبى المتوفى سنة أربع وثمانين وثمانمائة ، وسماه « كنوز الذهب » وهو ذيل « الدر المنتخب » ضمنه ذكر الأعيان والحوادث ، والذيل على « كنوز الذهب المسمى بالدر الحبيب » للمحقق رضى الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلى الحلبى المتوفى سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ، وهو أيضاً على الحروف . وله تاريخ آخر انتزعه من تاريخ ابن العديم وزاد عليه وسماه « الزبد والضرب » فى تاريخ حلب « ألفه سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وللشيخ طاهر بن الحسن المعروف بابن حبيب الحلبى المتوفى سنة ثمان وثمانمائة تاريخ منتزع منه أيضاً سماه « حضرة النديم من تاريخ ابن العديم » .

هكذا وجدته ، ثم رأيت فى « درة الأسلاك » لوالده حسن ابن حبيب أنه يقول فى ترجمة الكمال بن العديم : جمعت من تاريخه ومن خطه كتاباً لطيفاً سميته « حضرة النديم » . « اهـ »

ومن هذا العرض نعلم قيمة هذا الكتاب الذى كان مرجعاً لجميع المؤرخين الذين كتبوا عن حلب ، منذ العصر السادس إلى العصر العاشر الهجرى ، إلى يومنا هذا . .

ولكن أين هذا الكتاب ؟ وهل تحتفظ مدينة حلب بهذا الأثر النفيس من آثار ابن العديم ؟ من المؤسف والحرة تحزّ نفوسنا أن نقول : لا . والله يعلم أى يد آتمة عبثت بأجزاء هذا الكتاب ؟ . وهو اليوم كله أو بعض أجزائه فى مكاتب باريس واستنبول والقاهرة ولندن وحلب .

ومن المؤلم أيضاً أن نقول إنه لم يبق من الأربعين جزءاً التى كتبها ابن العديم بخط يده غير أجزاء مبعثرة ، مع أن كتابه كان مرجعاً لعشرات المؤرخين على تعاقب الأجيال .

آراء المؤرخين في ابنه العديم

تلك لمحات سريعة عن ابن العديم المؤلف ، ولنستمع الآن إلى آراء معاصريه ، وأكثرهم من ثقات المؤرخين ، في قيمته العلمية ومركزه الاجتماعي أديباً وعالماً وقاضياً ووزيراً وسفيراً من سفراء المملكة ، وهكذا تنكشف لنا صفحات جديدة من حياة هذا الرجل الموهوب الذي دافع عن كرامة العقل في شخصية أبي العلاء ، ولعب دوراً خطيراً في تاريخ حلب الأدبي والسياسي ، وكان من هذا النفر الذي عمل على توثيق الروابط بين مصر والبلاد العربية في ردّ عدوان الأجنبي .

قال الذهبي صاحب تاريخ الاسلام :

« كان كال الدين عديم النظر فضلاً ونبلاً وذكاء ورأياً ودهاء ومنظراً ورواء وجمالة ومهابة ، وكان محدثاً حافظاً ومؤرخاً صادقاً .
وفقيهاً مفتياً وانشأ بليغاً . . »

وقال شهاب الدين محمود :

« كان ابن العديم إماماً عالماً فاضلاً متفناً في العلوم ، جامعاً لها .
أحمد الرؤساء المشهورين والعلماء المذكورين . وترسل إلى الخليفة

والملوك مراراً كثيرة . وكانت له الوجاهة العظيمة عند الخلفاء والملوك . وهو مع ذلك كثير التواضع لين الجانب حسن الملتقى والبشر لسائر الناس . مع ما هو مفظور عليه من الديانة الوافرة والتحرى في أقواله وأفعاله .

وفي « فوات الوفيات » :

« كان محدثاً فاضلاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً محموداً ، درس وأفتى وصنف وترسل عن الملوك » .

ونستطيع أن نورد عشرات النصوص في الإلماع إلى علمه وفضله ومركزه . وكأها على النسق الذي تقدم . ونكتفي بهذا المقدار لننتقل إلى صفحة جديدة من حياته السياسية . ونرى قبل الإلماع إلى هذه الصفحة أن نجو العصر السياسى الذى عاش فى أطوائه ابن العديم .

عصر ابن القديم والغزو المغولي

لقد كان العالم الاسلامي في العصر السادس الهجري . يعجّ بالقلق والاضطرابات . وكانت دنيا العرب بعد أن تصدعت الخلافة الاسلامية تتقاذفها الرياح والأعاصير . بل كانت في حالة من التصدع تدعو إلى الذعر واليأس . . فما كادت تهدأ نيران الحروب الصليبية ويخمد ضرامها حتى أخذت تواجه خطراً جديداً . كانت حروب المغول لاقتل خطراً عن الحروب الصليبية ، أى أن البلاد العربية في تلك الفترة . واجهت حربين عنيفتين : حرباً دينية خطيرة وحرباً عنصرية مميتة . نعم لقد واجهت شواطئ البحر المتوسط هذه الموجات الصليبية التي صمد لها صلاح الدين ، فما كادت تردّ ويقضى عليها حتى واجهت خطر جنكيزخان وهولاكو . . وأى خطر ؟ . لقد كان خطر المغول كالطاعون الخفيف الذي انتشر وبأوه في جميع الأقطار الإسلامية .

يصف المستشرق السير توماس أرنولد في كتابه « الدعاية الإسلامية » هذه الكارثة بقوله :

« لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات

خطباً أشد هولاً من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قنن الجبال واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية ، وأتت على ما كانت لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى صحراوات وأطلال بالية ، وكانت تقوم قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق والمروج الغناء^(١)»

وهكذا ، اتحت معالم المدينة التي زهت عدة عصور في بلاد ماوراء النهر وخراسان على أيدي هؤلاء المتوحشين ، وانحدرت البلاد إلى دركات الفاقة والجهل ، وتوضت عظمتها . وأقفرت الطرق من القوافل التي كذت تحترقها لنقل حاصلات الصين والهند إلى غربي آسيا وأوربا ، واستحالت الأرض الزراعية المعروفة بخصوبتها إلى باقع يباب ، واضمحلت الصناعات والفنون التي طبقت شهرتها الآفاق ، وغدت المدن والضياع أطلالا دارسة ، وقتل الفلاحون ، وأدخل من بقي منهم قسرا في الجيش المغولي ، وحمل أصحاب المهن إلى أقاصى الشرق ليشغلوا في تجميل مسقط رأس الغازي ، وعلى الجملة قضت إغارة المغول قضاء مبرما على الحياة العقلية في آسيا الوسطى^(٢) .

(١) انتشار الاسلام بين المغول وانتار — حسن إبراهيم حسن ص ٢٤

(٢) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ٣٣٩

هولاكو في بغداد

لقد مهد جنكيزخان لهولاكو ، بعد هذه الزحفات المغيرة - مهد له شهوة الفتح في بلاد الشرق العربي ، فبعد أن فتح بلاد ما وراء النهر ، بعد خوجاند وبخارى وسمرقند وأوركانج وهرآوة والرى ونياور وهمدان ، واصل زحفه على بغداد عاصمة الخلافة العباسية فقد دخلها في عهد المستنصر الذى توفى في أخرج مواقف الدولة العباسية . خلفه ابنه المستعصم بالله ، وكان ضعيف الرأى ، شديد البطش ، مغرماً باللهو ، وقد عرف عهده بنشوب الفتن والاضطرابات فى الداخل والخارج ، حتى تجمعت عليه الإهـن والمصائب .

وكان المسيطر على شؤون الملك وزيره ابن العلقمى ، وكان رافضياً خبيثاً ، حريصاً على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين ، وقد زين للخليفة أن يسرح الجند ويصانع التتار ، وكان على صلة بهولاكو وأعوانه ، فكاتبهم سرّاً وأطمعهم فى البلاد على أن يكون نائبيهم ، فوعده بذلك ، وتمت الكارثة الكبرى . فدخل هولاكو وجنوده قاعدة الملك العباسى بجيوش جرارة لا قبل للعالم الاسلامى بها ، وقد حاول جنود الخليفة مقاومة الغزاة

قبل وصولهم إلى بغداد . بيد أن تفرق كلمتهم أدى إلى إحباط جهودهم وإلحاق الهزيمة بهم في آخر الأمر .

ولما وصل المغول إلى بغداد حاصروهم أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ، ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يطرونها بوابل من الحجارة والغاز المشتعل حتى أحدثوا في أسوارها فجوة كبيرة وأحرقوا منازلها ، وعندئذ أذعن الخليفة المتردد لطلب الصلح وفتح باب المفاوضات مع هولاءكو الذي سرعان ما استدعى كبار ضباط المستعصم وقتلهم هم وخدامهم وأتباعهم ، فساء لذلك موقف الخليفة ، وأبدى في الحال استعداداه إلى الاذعان بالتسليم على شرط أن يبقى على حياته وحياة سكان المدينة ، كما استأذنه في الخروج إلى معسكره وبصحبة أخوه وولداه وحاشيته المؤلفه من ثلاثة آلاف جهم من القضاة والأعيان والأشراف ، ولكن هولاءكو مع ذلك لم يسمح لأحد بالثول بين يديه إلا للخليفة نفسه وأخيه وولديه وثلاثة من رجال البلاط .

وقد استقبلهم ذلك الوحش استقبالا ودياً برغم ما كان يضمر لهم من الخيانة والغدر ، ولما نجح في تهدئة روع الخليفة وأدخل الطائنة إلى قلبه ، أمره أن يوعز إلى الأهالي المسلحين بالقاء

السلاح والوقوف خارج أبواب المدينة بحجة إحصاءهم ، وما إن أذعنوا إلى أوامر الخليفة وتدققوا خارج أسوار المدينة حتى هجم عليهم التتر وفتكوا بهم فتكا ذريعاً .

وفي صباح اليوم التالي أصدر هولاء كوامر المشؤوم بنهب المدينة وذبح أهلها . وإنما لنرى - كما يقول المؤرخ الهندي أمير على - أننا نحتاج في وصف تخريب تلك المدينة إلى بيان كيان (غيون) المؤرخ المشهور لكي نستطيع أن نقرب الحقيقة إلى أذهان القراء ، فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم ، ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم كما وطئوا أجسادهم بحوافر خيولهم ، وهجموا على نساء الأشراف والنبيلات اللواتي لم يعتدن السير في ازدحام طوال سنى حياتهن وجروهن إلى الشوارع ، كما أنزلوا بهن أروع ضروب الإهانات وأذلهن . أما تلك الكنوز الأديبة والفنية ومخلفات المدينة الفارسية التي جمعتها أيد حريصة نشيطة بأشراف الخلفاء ، فقد دمرت تدميراً في خلال بضع ساعات ، وطفقت شوارع المدينة تنساب فيها الدماء طوال ثلاثة أيام ، حتى اصطبغ ماء دجله لعدة أيام بصبغة الدم القانية ،

وظلت ريح التخريب والذبح وانتهاك حرمة الأنسانية تعصف بالمدينة ستة أسابيع كاملة حتى انهارت القصور المنيفة الذرى ، وتقوضت الجوامع المقدسة والضرائح الفخمة إما بالنار وإما بالمعاول من أجل قبابها الذهبية .

وأعمت السيوف في رقاب المرضى في المستشفيات ، وطلاب العلم والأساتذة في المدارس والكليات ، ونبشت قبور الأولياء وأضرحة الأئمة الصالحين ، والتهمت النيران تتأجج قرأح العلماء والأدباء ، وألقيت الكتب لتتهمها ألسن النار أو لتبتلعها مياه دجلة ، وهكذا فقدت الانسانية كنوز خمسة قرون ، وفيت زهرة الأمة فناء تاماً .

وبعد أن استمرت ريح هذه المذابح الدامية تعصف بالمدينة طوال أربعة أيام ، قبض هولاء كو على المستعصم وأمر بضربه هو وأولاده وأفراد أسرته ضرباً مبرحاً حتى فارقوا الحياة^(١) . ولم ينج من هذا المصير المحزن سوى عدد ضئيل من أفراد الأسرة الخاملى الذكر . وهكذا ، أمست بغداد : موطن العلم ومثابة العلماء ، وعاصمة

(١) فى النجوم الزاهرة : أنه لما تم أمر هولاء كو طلب الخليفة وقتله خنقاً ، وقيل غم فى بساط ، وقيل جعله هو وولده فى عدلين وأمر برفسهما حتى ماتا . ج ٧ ص ١٧٧

الثقافة الإسلامية ، وحاضرة العالم العربي خراباً يباباً ، بعد أن كان عدد سكانها قبل هذه الطامة الكبرى زهاء مليونين . ويقول ابن خلدون إن ١٦٠٠٠٠٠ هلكوا في تلك المذبحة في خلال ستة أسابيع . وبتدمير بغداد أرخى الظلام الدامس سدوله على غربي آسيا^(١) كان العالم الإسلامي ، في العصر السادس ، يعيش في هذه المحن السود ، ولم تكن عاصمة الخلافة العباسية - على ما هي عليه من التفكك والاقسام الداخلي - لم تكن تظن أن غارة التتر التي نبتت في غربي آسيا ستخطى فارس إلى وادي الرافدين ، وكان سقوط حاضرة الخلافة العباسية - وقد سقطت سنة ٦٥٦ هـ - إنذاراً خطيراً بنكبات تنتظر بلاد الشام . وهكذا كان . فان هولاء كو والى زحفه دون توقف .. وماذا بعد بغداد؟ نعم ماذا بعد فرغانة وبخارى وسمرقند وبلخ ونيسابور وبغداد غير مدينة ابن العديم؟

لقد كان كمال الدين في نصارة شيخوخته . وإنه - وهو مؤرخ وسياسي - يعرف أى مصير محزن يرتقب حلب .. لقد أبكتته كارثة بغداد ، هذه الحاضرة التي قامت على ضفافها حضارة العالم الإسلامي أجمع ..

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص ٢٤١-٢٤٣

وكيف لا تغرورق عيناه بالدموع وقد أصبحت مدينة الرشيد
طعمة لنيران المغول ؟

إنه وطني مخلص وشاعر حساس ، ومسلم يتقد قلبه بالإيمان .
ولم تكن نظراته الوطنية نظرة إقليمية ، لذلك كان حزنه على سقوط
بغداد أكثر من الجميع ، وبدأ يفكر في الخطر الذي يهدد وطنه
حلب ويهدد بلاد الشام .

ابن العديم في سفارة السياسة

وتساءل ابن العديم ما عساه يستطيع أن يعمل ؟ هل في مملكة الناصر يوسف هذه القوى المنيعة التي تستطيع أن تصد هجوم التتر ؟ كان ابن العديم يفكر في هذا ، وكاننا هذه الكارثة ستنزل به وحده ، وسرعان ما عقد مجلساً فوق العادة مع الملك . وكان كمال الدين من المقرين إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وحلب ، بل كان صفيه ، بل كان أكثر من هذا . يقول عنه ابن فضل الله : « كان بين أهل ذلك الزمن لا يجلس أحد فوقه في مجلس السلطان ، وكان الملك الناصر بن الملك العزيز يخاطبه بالوالد ، ويحكم للألف منه بواحد »

وطبيعي أن يرجع إليه في رد هذه الكارثة ، وقر الرأي أن يسافر ابن العديم إلى مصر ، مندوباً عن الملك الناصر ، يطلب النجدة من ملكها لرد عادية المغول . أي لم يكذب يرجع من بغداد سنة ٦٥٤ هـ وقد سافر في مهمة توطيد العلاقة بين الخليفة والملك الناصر حتى يسافر إلى مصر سنة ٦٥٧ في مهمة سياسية خطيرة .

وعلى ما بين القطرين من مسافات شاسعة ، وعلى الرغم من صعوبة

السفر في ذلك الزمن ، وبرغم شيخوخته ، فإنه لم يتردد في السفر . إنه من بيوتات حلب الكريمة ، وهو زعيم قد سيطر على الموقف بعلمه وأدبه ودرأته وحكمته ، فما راحته وما شيخوخته في سبيل إنقاذ وطنه ؟ إذن ، فليسافر إلى مصر .

وسافر معتمداً على ما جباه الله من ذكاء وعلم ومقدرة وسياسة ، وماله من كلمة مسموعة عند ذوى الرأى من رجالات البلاد العربية . وكانت شهرته قد سبقته إلى مصر ، بعد سفرته إلى بغداد وبعد توليه منصب قاضى القضاة وبعد توليه الوزارة مرتين : الأولى للملك العزيز والثانية للناصر آخر بنى أيوب . نعم ، لقد استفاضت شهرة ابن العديم . ولم تقف هذه الشهرة في حدود حلب بل تخطتها إلى الآفاق العربية . ولم يكن السفر في ذلك الحين بالسيارة أو بالطيارة ، ولا بالباخرة أو القطار ، بل كان على الدواب . وهل يستطيع هذا الشيخ الجليل أن يقطع هذه المسافة الطويلة ، أى أن يقطع ثلاثين يوماً على دابة ، لا : لقد هيئت له محفة تحمله بين بغلين .

وهكذا ، فقد بارح حلب ونفسه قلقة على المصير المحزن الذى يرتقب عاصمة الحمدانيين بعد كارثة عاصمة العباسيين .

ووصل إلى مصر . .

ولكن ماذا كانت عليه مصر ؟

كانت من الفوضى والاضطراب بما لا يدعو للاطمئنان ، لقد ظلت فترة بدون سلطان ، ثم حكمها مملوك تركي من ممالك الصالح نجم الدين أيوب - نعم كانت مصر محكومة من الأمير التركياني - الملك المعز أيك الذي تزوج شجر الدر ، ولكن ملكه لم يطل ، فقد أراد أن يتزوج بنت الملك الرحيم صاحب الموصل ، وأنت تقدر ماتفعله الغيرة في قلوب النساء وفي قلب ملكة كشجر الدر . فما كان منها إلا أن قتلتها ، ولقته قصة ليس هنا مكان لسردها . وقد حكم مصر بعده ولده الملك المنصور على وهو صبيٌّ رُغْر ، وكان كأبيه غير محبوبين من المصريين الذين كانوا يتطلعون إلى الملك الناصر . نعم ، وصل ابن العديم إلى مصر بعد سفر مضمّن طويل ، وقد تحمل هذه المتاعب المرهقة برغم شيخوخته ، فاحتفت به مصر حفاوة بالغة ، احتفى به الملك والأمراء والأعيان والعلماء ، ونزل في ضيافة السلطان في قصر الكبش^(١) وتوافدت رجالات مصر للسلام

(١) الكبش يطلق على الجزء الشمال الغربي من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربي جامع ابن طولون - النجوم الزاهرة - ج ٧ ص ٧٢ ويقول المقرئ في خطه - ج ٢ ص ١٣٣ أننا. كلامه عن مناظر الكبش إن هذه المناظر كانت على جبل يشكر بجوار الجامع الطولوني وإن الملك الصالح نجم الدين أيوب لما أنشأ هذه المناظر سماها الكبش لوقوعها فوق الجبل ولا تزال هذه المنطقة تعرف اليوم باسم فلاة الكبش بشارع مراسينا بقسم السيدة زينب

عليه والترحيب بتقديم عالم فذ من علماء العالم الاسلامى ، ومفكر سياسى هاله أن تصبح بلاد الإسلام نهبا للمغوليين الهدامين .

وانتهت مراسم التسليم ، وبدأ المؤرخ السفير بمفاوضاته ، وكان على رأس مصر الأمير قطز ، وهو ذو مطامع واسعة ، وقد رأى أن يستغل فرصة مقدم ابن العديم ليثير قضية السلطنة مجدداً . وهكذا فقد عقد اجتماع فى دار السلطنة بقلعة الجبل ، ودعى إلى هذا الاجتماع القضاة والفقهاء والأعيان للنظر فى مهمة ابن العديم ، وفى نوع المعونة التى تستطيع أن تقدمها مصر إلى الشام فى ردّ عادية التتر . على أن الاجتماع لم يقف عند هذه الناحية فقط ، بل تعداه إلى واجب الشعب فى هذه الظروف ، والالتزامات التى تقتضيها ظروف الحرب - أو ظروف ردّ عادية العدو - وما يجب على الشعب وما يجب على الحكومة . وأدلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام برأيه ، وهو رأى لا يقل فى صرامته عما تفرضه الحكومات من هذه الأنظمة الشديدة التى شهدناها فى هذه الحرب والحرب الكبرى الأولى .

على أن السلطان لم ينبس بينت شفة فى هذا المجلس ، ويعلل المؤرخون ذلك بصغر سنه وعدم معرفته الأمور ، ولهج الناس بضرورة خلع المنصور وتوسيد السلطنة إلى قطز ، ويظهر أن ابن العديم

لم يرقه هذا التصرف ، ولكن الأمير قطز أوضح لابن العديم أن مصلحة الدولة تقضى بذلك ، لأن المنصور صبي لا يحسن تدبير الملك ، ولا بد في مثل هذه الظروف العصبية من أن يقوم بأمر الملك رجل ذو مكانة وشهامة ، يطيعه الناس وينتصب للجهاد لرد عادية الأعداء وغاراتهم الخفيفة (١)

ويبدو لي أن ابن العديم كان يود ألا تقع هذه الأمور أثناء وجوده في مصر ، وهو ضيف على السلطان ، ولكن البلاد العربية في خطر ، وهولاكو قد اجتاز بغداد في طريقه إلى حلب . وقطر من أقوى أمراء مصر ، والمصريون يرمون بحكم هذا الصبي الغر . إذن ، فما كان منه ، بعد أن صرح قطز بأنه لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع ما لم يوسد الأمر إليه - ما كان من ابن العديم إلا أن نادى مع الجميع : ليس لدفع هذه الكارثة غيرك .

وهكذا ، فقد خلع الملك المنصور في الحال وبويع الأمير قطز ، ولقب بالملك المظفر سيف الدين ، وسرعان ما جهز حملة كبرى إلى البلاد الشامية للانضمام إلى جيش الملك الناصر ومقاتلة هولاكو لدفع هذا الخطر الذي يهدد البلاد العربية من فرائها إلى برداها إلى نيلها .

كان الملك الناصر قد بارح حلب إلى دمشق ليعلن التعبئة العامة وقد جمع جيشاً من الشام ناهز مائة ألف جندي ما بين عرب وعجم ، وكان سفيره ابن العديم قد استطاع أن يهيبه الرأي العام المصري ورجال الدولة للاشتراك في دفع عدوان التتر ، برغم ما كان بين الملك الناصر والملك المظفر - سيف الدين قطز - من صلات غير ودية . ولكن مطامع هولاء كولا لم تكن لتقف عند بلاد الرافدين ، بل كان يطمع في مصر بعد أن يستولى على بلاد الشام .

واقترب الخطر ودخل هولاء كولا مدينة حلب سنة ٦٥٨ هـ بعد حصار دام عشرة أيام دافعت فيها دفاع الأبطال ، قتل فيها خلق كثير ، واستبيحت الدماء ، وامتلات الطرقات بالقتلى ، وتهدمت البيوت والجوامع والمساجد والبساتين حتى أصبحت المدينة موحشة . يقول المؤرخون إن الحلبيين قد قتلوا من جنود هولاء كولا عدداً كبيراً . وهذا الذي حمه ، بعد أن دخلها ، أن يعيث فيها ويأخذ منها مائة ألف أسير ، عدا ما صادره من أموالها ونفائس كنوزها . ومن حلب إلى دمشق ... وما زال حتى اقترب من الأراضي الفلسطينية ، فأرسل إلى الملك المظفر - قطز - إنذاراً شديد اللهجة يطلب إليه التسليم بدون قيد ولا شرط . ولكن سقوط بغداد

وحلب ودمشق وما أنزله هذا الطاغية من البلاء والكوارث بالنفوس
والحرقات المقدسة قد أثار حفيظة المصريين الذين هبوا للإعلان
الجهاد على هذا الجلاد الأحرر .. وهكذا كان ، وبدون أن انفصل
وقائع هذه المعركة الخطيرة ، نقر إن النصر قد كتب على يد قطز
- الملك المظفر سيف الدين - والأمير بيبرس البندقدارى (١) - فقد
هُزم هولاءكو وجنده في «عين جالوت» ، وكانت تلك المعركة من
المعارك الحاسمة في التاريخ ...

وقبل أن يُهزم هولاءكو كان الملك الناصر قد استسلم إليه
فأنس به وأكرمه وأجرى عليه راتباً ووعدته بمملكتي الشام ومصر
وكتب له فرماناً بذلك ، ولكن ما كادت معركة «عين جالوت»
تقضى على آمال هولاءكو حتى سحب الملك الناصر إلى سلماس
وهي مدينة في أذربيجان - وقتله مع جملة من أصفيائه الأمراء .
أما ابن العديم فظل في مصر ، ولم يكده يسمع بجلاء النتر عن
بلاد الشام حتى اعتزم العودة إلى حلب ليرى ما نزل بها من بلاء ...
نعم عاد إلى مسقط رأسه ، فماذا رأى ؟

كل شيء يدعو فيها إلى الوحشة والرعب ، مدينة صامتة كأنها

مقبرة ، لم يتبين فيها تلك المحاسن التي أوحى اليه أن يكتب عنها
أربعين مجلداً ، نعم ؛ لم تعد في نظره تلك الروضة الغناء .. أين
قصر الملك الناصر ؟ أين بيوت آل العديم ؟ ما فعل الله بجوامعها
وقصورها ؟ لقد أصبح أكثرها خراباً ياباً .. ولم يُطق المقام في
بلده .. فما كان منه إلا أن قفل راجعاً الى مصر بعد أن ودع مدينة
الحمدايين بقصيدة حزينة . ومن المؤسف ألا تحفظ لنا النصوص
القديمة غير عدة أبيات متقطعة من هذه القصيدة الطويلة التي يصف
فيها تهديم التتر لحلب بقوله :

هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم وإن رمت إنصافاً لديه ، فنظلم
أباد ملوك الفرس جمعاً وقيصرا وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم وما منهم إلا مليك معظم
وملك بنى العباس زال ولم يدع لهم أثراً من بعدهم وهم هم
وأعتابهم أضحت تداس وعهداها تباس بأفواه الملوك وتلثم
وعن حلب ماشئت قل من عجائب أجل بها يا صاح إن كنت تعلم
ومنها :

هيفالك من يوم شديد لغامه وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت مصاحفها فوق الثرى وهي ضخيم

إلى أن قال :

واكنما لله في ذا مشيئة فيفعل فينا ما يشاء ويحكم
ورجع إلى مصر ، ينوى الإقامة فيها بعد أن توثقت معرفته
بكثيرين من رجال الدولة والعلماء . نعم ، لقد آلمه أن يرى الشهباء
قد آلت خرابا على أيدي التتر ، فنزح عن بلده إلى مصر التي عرفت مكانته
وقدره فاستوطنها ، واكن لم يطل مقامه فيها حتى وافاه القدر سنة ٦٦٠ هـ
ودفن بسفح المقطم من القرافة بالقرب من المسجد المعروف
بالعرض ، بتربة موسى بن يغمور .

الدفاع عن أبي العلاء

رسالة ابن العديم

تقف الآن عند هذا الحد من إبراز شخصية ابن العديم —
شخصيته الأدبية وشخصيته السياسية ، وما رافق حياته من
أحداث فذة في تاريخ العالم الاسلامي ، لتعلم أى فذ انتصب للدفاع عن
أبي العلاء .

إنه لم يكن أديباً وسطاً ، بل كان إماماً من الأئمة العظام
وقد آلمه أن يشيع الجهل في أنصاف العلماء وأن يحكموا عليه حكمهم
القاسى ، فتوفر على دراسة كل ما كتبه أبو العلاء أو أكثره ،
فلم يجد فيه هذه الارهاصات التي رموه بها ؛ بل رأى أديباً فذاً
تفاخر به العربية ويعتز به الاسلام ؛ شاعراً فيلسوفاً قل أن تجود به
الأجيال . ورأى داء الحسد فاشياً ، والناس تذهب مذاهب ملتوية
في تسفيه الأحلام ، فكتب رسالته ، وهي آية في القوة ، تضمنت
مقدمتها كلمات قدت من نار ، فقد عرض الى قيمة أبي العلاء
الأدبية ، والى رأى المتخرصين فيه ، والى ما يصيب البشر من لؤم
الطباع ، وما زال يصب عليهم جام غضبه وقمته إلى أن أظهره في
طلیعة المفكرين المصلحين . ولا نسترسل في الالمام الى هذه المقدمة ،

وسيتلوها القارئ بنصها بعد قليل ، وأنا واثق أنه سيعيد تلاوتها أكثر من مرة ، لأنها قطعة من الأدب الخالص — الأدب الحار الذى يدافع عن فكرة ومبدأ ، ولا يضيرها أنها مسجعة . فهى من هذا اللون ذات الجرس الموسيقى .

لقد صور فى هذه المقدمة أبا العلاء أجمل تصوير ، عرض الى فكرته ، والى خصومه ، والى مذهب التحاسد فى عصره ، فكان محامياً لبقاً من أبلغ المحامين الذين يتصدون للدفاع عن قضايا الفكر . وينتهى من هذه المقدمة الى الاماع الى نسبه ومولده ، ثم الى نشأته وعماه وخلقته . ثم يتحدث عن اشتغاله بالعلم ، وشيوخه الذين أخذ عنهم ، كما يتحدث عن تلاميذه ومن روى عنه من العلماء والأدباء والمحدثين . ثم يشير باسهاب الى تصانيفه ومجموعاته وآكيفية وأشعاره ورسائله ، وبعد ذلك يكتب لنا ابن العديم قصة سفر أبا العلاء الى بغداد وعودته منها ثم انقطاعه فى منزله عن الناس .. وبعد أن يجلو هذه الصفحات من حياته يتحدث عن ذكائه وفطنته وسرعة حفظه وألمعيته وتوقد خاطره ويصيرته ومقامه عند الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء ، ثم يتناول الكلام عن كرمه وجوده على قلة ماله ونزارة موجوده ، وعن قناعة نفسه وشرفها

وعفتها، الى غير ذلك مما يتصل بأبي العلاء .

وكأنه أحب أن يبرز شخصيته الفذة من خلال دفاعه ، فوفق في رسالته هذه أعظم توفيق ، ودل على واسع علمه وعلى قوة اتزانه ودقة أحكامه .

ولا شك أن هذه الرسالة ، لزمناها ، قد أخرست الكثيرين من المتخربين الذين يرمون الكلام على عواهنه دون تدقيق أو تمحيص ، وأكثرهم يذهبون — بنزعة التقليد — إلى الحكم على هذا وذاك بالاحاد دون روية وإمعان . ولا يزال كثيرون الى يومنا هذا يذهبون الى أن المعرى من المعطلين دون أن يكونوا قد درسوا أقواله أو حتموا خفايا معتقده ، بل حكموا عليه من قراءة بيت قد يكون الشاعر رمز فيه إلى أشياء تدق حتى على أقرب المتصلين به ، ونستطيع أن نقول إن المعرى كان من أكابر الشعراء الرمزيين . وإن كان لا يقصد الرمزية لذاتها كما يفسرها النقاد الفرنسيون ، ولا حاولها كما يحاولها شعراء العصر . . ولكن كان المعرى يرمز إلى أشياء يعرضها في ضباب من الألفاظ المعقدة ، توارياً عن الأفهام البليدة التي كانت تقف له بالمرصاد ، وتفسر كلماته على غير مدلولها ولا تتورع أن تنحله كلاماً لم يقله .

ولكن الحق لا بد من أن يسفر لدى عينين ، وسيظل الناس
فريقين : فريق المفكرين الذين يسمون بأرائهم ومثلهم العليا الى
السماكين ، وفريق البله الحشويين الذين ينزلون بداركهم إلى أسفل
السافلين . وحسب المفكرين أن يظلوا في القمة ، لا يلتفتون الى هذا
الهراء الذي تلوكه ألسنة المرهصين الثرثارين . وسيظل ما كتبه
أبو العلاء آية من أجمل آيات الفكر البشري ، وحسبه فخراً أن يدافع
عنه رجل في كفاية ابن العديم . وهو من عرفت من المكانة الأدبية
والفكرية وعلو القدر في مختلف الميادين .

والآن بعد هذه التوطئة ، تتكلم عن كتاب ابن العديم
الذي ألفه في الدفاع عن أبي العلاء ، وسماه « الإينصاف والتحرى
في دفع الظلم والتجري » . عن أبي العلاء المعري « والكتاب مفقود^(١)
وغير مطبوع ، عثر على نسخة مخطوطة في خزانة السيد مرعي باشا
الملاح أحلب أعيان حلب ، وقد سمح بنسخ صورة عنها لمكتبة المجمع
العلمي العربي ، كما نسخ صورة عنها الشيخ راغب الطباخ ونشرها

(١) يقول البحاثة المرحوم أحمد تيمور باشا في كتابه أبو العلاء المعري ص ٧ أثناء
تلامه عن بيته « وذكروا أن كمال الدين بن العديم عقد فصلاً لتراجمهم وأخبارهم في كتابه

في كتابه « أعلام النبلاء » والمخطوطة في ١٥ صفحة بقطع ريع عادي (١) وهي مخرومة من أولها وآخرها ، وهي غير كاملة ، فما تكاد تقرأها حتى تشعر أن خصوم أبي العلاء وقد قضاوا على الكثير من كتبه ، قد قضاوا على هذه الرسالة أيضاً

لقد كتب المعري ما يقرب من مائة مؤلف ، فأين هي ؟ .. ليس بين أيدينا غير كتب معدودة قد لا تتجاوز الخمسة ، وكما استطاع الجناة - وجناة الفكر أشد خطراً على الإنسانية من الجناة الذين يرتكبون جرائم القتل - أن يقضوا على مؤلفات أبي العلاء ، فقد استطاعوا أن يقضوا على الكثير من الكتب التي دافعت عن كرامة العقل في شخص أبي العلاء .

وتشاء الأقدار أن تحفظ لنا مقدمة الكتاب وهي وحدها كافية لأن ترينا بأية عاطفة صادقة ، وبأى تفكير حر دافع القاضى كمال الدين عن الشاعر أبي العلاء ، وقد عامت من تاريخ ابن العديم أنه إمام من أئمة الدين ، شغل منصب قاضى القضاة مدة طويلة ، وعرف بورعه وتقاه ، وكان لعائلته هذا المركز الدينى الخطير الذى يفرض

د دفع التجري عن أبي العلاء المعري ، الا أنى لم أظفر بهذا الكتاب مع كثرة بحثى وتفتيى عنه ، . (١) مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٢ ج ٨ ص ٢٣٦

عليها أن تتماق عواطف الجمهور ، ومع ذلك فقد رأى ابن العديم أن
أبا العلاء مظلوم ، فأنبرى لانهصافه من ظالميه ، وكان رائده الاينصاف
والتحرى فى دفع هذه المظالم أو هذا الظلم والتجرى الذى صبّه حساده
عليه ... وهذا الذى يجعل لكلام ابن العديم أثره ومغزاه .

واستمع الآن كيف يدافع عنه ، وبأى أسلوب حار ولسان
ذرب يصب جام غضبه ونقمة على خصومه ، ولاشك أنك مستحس
فى مطاوى كلامه روح الثورة العاتية ، وكل ما أرجوه من القارئ
الكريم أن يتمهل فى القراءة خشية من أن يضيق بأسلوب القرن
السادس ، ومؤرخنا وإن التزم السجع فى دفاعه فان سجعه لا تنفر
منه الأذان ، ونحس فى بعض المواقف بجرس اللفظ قد مازج جمال
الفكرة : حتى لينسى القارئ أنه يقرأ كلاماً مسجعاً ، ولا نسب
فى الكلام عن المقدمة ، فحسبنا هذا الامناع ، ولنترك لابن العديم أن
يقدم كتابه بقلمه .

مقدمة ابن العديم

قال ابن العديم :

« الحمد لله الكريم العادل ، ذى الفضل الشامل ، والإحسان الكامل ، محق الحق ومبطل الباطل ؛ أحمده على ما منحننا من التوفيق وهدانا به إلى سواء الطريق . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة من خلص له يقينه ، وصح بالوحدانية مذهبه ودينه ؛ وأشهد أن محمداً عبده الأواب ، ورسوله المبين للصواب ، أرسله بالآيات الباهرة ، والحجج الزاهرة ، والدلائل الظاهرة ، ففرق بين الصحيح والسقيم . والمعوج والقويم ، وهدى أمته إلى الصراط المستقيم ، صلى الله عليه وعلى آله الأكرمين ، وأصحابه الهداة المنتخبين ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، فإني وقفت على جملة من مصنفات عالم معرفة النعمان ، أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان ، فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان ، مودعة فنونا من الفوائد الحسان ، محتوية على أنواع الآداب ، مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب ؛ لا يجد الطامح فيها سقطة ، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة .

ولما كانت مختصة بهذه الأوصاف ، مميزة على غيرها عند أهل
الإي نصاف ، قصده جماعة لم يعوا وعيه ، وحسدوه إذ لم ينالوا سعيه ،
فتبعوا كتبه على وجه الانتقاد ، ووجدوها خالية من الزيغ والفساد ،
فحين علموا سلامتها من العيب والشين ، سلكوا فيها معه مسلك
الكذب والمين ، ورموه بالاحاد والتعطيل ، والعدول عن سواء
السييل . فمنهم من وضع على لسانه أقوال المألحة ، ومنهم من حمل
كلامه على غير المعنى الذى قصده ، فجعلوا محاسنه عيوباً ، وحسناته
ذنوباً ، وعقله حمقاً ، وزهده فسقاً ، ورشقه بأليم السهام ، وأخرجوه
عن الدين والإي سلام ، وحرفوا كليمه عن مواضعه ، وأوقعوه فى
غير مواقعه .

ولو نظر الطاعن كلامه بعين الرضا ، وأحمد سيف الحسد من
عليه انتضى ، لأوسع له صدرأ وشرح ، واستحسن ما ذم ومدح .
لكن جرى الزمن على عاداته ، فى مطالبته أهل الفضل بتراته
وقصدهم بإساءاته ، فسلط عليهم أبناءه ، وجعلهم أعداءه ، فقصدوه
بالطعن والاساءة واللييب مقصود ، والأديب عن بلوغ الغرض
مصدود ، وكل ذى نعمة محسود .

ومن سلك فى الفصاحة مسلكه ، وأدرك من انواع العلوم

ما أدركه ، وقصد في كتبه الغريب ، وأودعها كل معنى غريب ،
كان للطاعن سبيل الى عكس معانيها وقلبها ، وتحريفها عن وجوهها
المقصودة وسببها .

ألا ترى الى كتاب الله العزيز ، المحتوى على المنع والتجويز ،
الذى لا يقبل التبديل فى شىء من صحفه ، ولا يأتیه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه ، كيف أحال جماعة من أرباب باطل الاقاويل ،
تأويله على غير وجوه التأويل : فصرفوا تأويله الى ما أرادوا ، فما
أحسنوا فى ذلك ولا أجادوا ! حتى إن جماعة من الكفار ،
وأرباب الزلل والعتار ، تمسكوا منه بآيات ، جعلوها دليلا على
ما ذهبوا إليه من الضلالات .

فما ظنك بكلام رجل من البشر ، ليس بعصوم إن ذل أو عثر ؛
وقد تعمق فى فصيح الكلام ، وأتى من اللغات بما لا يتيسر لغيره
ولا يرام ، وأودعها فى كلامه أحسن إيداع ، وأبرزها فى النظم
البديع والأسجاع ، إذا قصده بعض الحساد ، فحمل كلامه على
غير المراد !

وقد وضع أبو العلاء كتابا وسمه بـ «زجر النابح» ، أبطل فيه
طعن للزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح ، وإيثاره

الصريح ، ووجه كلامه الفصيح ، ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه : «نجر الزجر» بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر ، فلم يمنعهم زجره ولا اتضح لهم عذره ، بل تحقق عندهم كفره ، واجترأوا على ذلك وداموا ، وعنفوا من انتصر له ولاموا ، وقعدوا في أمره وقاموا ، فلم يرعوا له حرمة ، ولا أكرموا علمه ، ولا راقبوا إلاّ ولا ذمة ، حتى حكوا كفره بالأسانيد ، وشددوا في ذلك غاية التشديد ، وكفره من جاء بعدهم بالتقاليد .

فابتدرت دوته مناضلا ، وانتصبت عنه مجادلا ، وانتدبت لمحاسنه ناظلا ، وذكرت في هذا الكتاب مولده ونسبه وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصدّه ، وسميته كتاب :

«الإينصاف والتحرى» ، في دفع الظلم والتجرى ، عن أبي العلاء المعرى »

وبالله التوفيق والعصمة ، وإليه المرجع في كل وصمة ؛ وهو حسبي ونعم الوكيل .»

من هذه المقدمة نعرف أى نهج سلكه ابن العديم فى الدفاع عن أبى العلاء . لقد قرأ ما كتبه بامعان ، وقرأ ما كتبه خصومه بامعان أيضاً . وازن بين أدب أبى العلاء ونهجه الحر ، وبين مفتريات خصومه وإرهاصاتهم المضللة ؛ وانتهى من موازنته الى آراء سديدة دفعته الى كتابة رسالته هذه . وهو إذ ينصفه ويرد فيها على حاسديه يكشف ، خلال كلامه ، عن خصائص عبقريته . وهذه الصفحات القليلة من المقدمة ترينا مدى حيوية الفكر الحر - فكر ابن العديم القاضى المؤرخ السياسى - ولون النضال عن الآراء الحرة التى يحاول المتزمتون ، فى كل عصر ، تشويه جمالها ووأدها إن استطاعوا الى ذلك سبيلا

وننتقل الآن الى فصول الكتاب ؛ فقرأ سيرة شيخ المعرفة بقلم قاضى قضاة حلب .

نَبَأُ أَبِي الْعَلَاءِ وَعَائِلَتُهُ

لقد بدأ كتابه ، بعد المقدمة ، بالكلام عن نسب أبي العلاء .
وللعرب عناية كبرى بالأنساب رغم ما يعتور هذه العناية عند بعض
المؤرخين من تخليط وأوهام أحيانا . وبدهي أن يهتم ابن العديم
بنسبه ، وأن يبدأ هذا الفصل بذكر اسم أبي العلاء وأسماء آباءه
وأجداده . وأحب أن أعتقد أن القارئ الكريم يعرف أن اسم
أبي العلاء هو أحمد وأن اسم أبيه هو عبدالله واسم جده سليمان .
وقد لا يهمه أن يعرف أكثر من هذا ، ولذلك لا أريد أن أكرر
هذه الأسماء أو هذا النسب الطويل الذي لم يكتف ابن العديم أن
يصله بقضاة وقحطان ، بل وصله بهود وإدريس وشيث و آدم !
ولو ذهبت أثبتته لضاق به القارئ ، وهذا الذي دفعني أن أهمله عمداً
مراعاة لأذواق الكثير من القراء الذين يضيقون بهذا التسلسل
الممل الذي يصرفهم أحيانا عن متابعة القراءة ، ولأن أكثر من
ترجم له من القدماء والمحدثين قد أثبتوا هذا النسب في ترجماتهم ،
وهو لا يختلف عما أورده ياقوت وابن خلكان وسواهما في الماضي
وأحمد تيمور باشا وغيره في عصرنا هذا .

وفى هذا الفصل ، نقع على استطرادات أدبية وتاريخية طريفة
لابأس من الإلماع إليها أو إيرادها بنصها ، وقد كتب فى هذا الفصل
تاريخ بيت أبى العلاء : من سبقه من الأدياء والأجداد ، وما تحدر
عن هذه العائلة من الأبناء والأحفاد ، ممن لهم خصائص ذهنية جديدة
بالذكر والتنويه ، كما كتب آراء طريفة عن البطون العربية وعن
ذوى المسكاة المرموقة ، ممن لهم أيضا صلة بسيرة أبى العلاء .

وهكذا ، فسيقرأ القارئ فى هذه الفصول ، صفحات من
أسلوب ابن العديم ونهجه ، وهو مؤرخ كتب آلاف الصفحات فى
التاريخ والأدب . بل سيرا سيرة أبى العلاء بقلم أديب مؤرخ عاش
فى القرن السابع الهجرى ، فامتزجت حياته بالأدب والسياسة والدين .
قال مؤرخنا الحلبى : وهو يتحدث عن قحطان وتيم اللات
وتنوخ ، عن الروم والفرس ، عن معرفة النعمان فى الجاهلية
والإسلام وما إلى ذلك مما يتصل بالتنوخيين أجداد أبى العلاء :

وقحطان : هو مجتمع قبائل اليمن بأسرها . وتيم اللات :
مجتمع تنوخ بأسرها ، وإنما سموا « تنوخ » لأنهم تنخوا بالشام ،
وقيل بالحيرة ، أى أقاموا ، والتنوخ هو المقام فى الموضع ، يقال تنخ
فى الأمر أى رسخ فيه فهو تانخ . وكانوا أقاموا على مالك بن زهير

ابن عمر بن فهم بن تيم اللات ، ونزلوا معه الحيرة فاخطوها وبنوا فيها الأبنية وعمروها ، وهم أول من عمر الحيرة ونزلها .
وكان لهم قوة وبأس وغناء وكثرة ، فغزاهم سابور الأكبر ملك فارس في جيوش عظيمة ، فقتلوه قتالا شديداً . ولم تنل الحرب بينهم أياماً ، فاحقت بسابور جيوشه وأمرؤه . فضغت «تنوخ» عن مقاومته وانكشفت ، فسار معظمهم ومن فيه نهوض منهم الى الضيزن بن معاوية التنوخي ، الى الحضرة ، فأقاموا بها . وملكوا ماجاورهم من البلاد ، وأجلوا سائر الأمم عنها ، إلا من أدى اليهم الجزية ، فاشتدت شوكة تنوخ ، وعظم بأسهم فملكوا عليهم الساطع وهو النعمان بن عدى ، وإنما سمي الساطع لجماله وبهائه وكان طويلاً وسيماً جميلاً جواداً شجاعاً ، فملك عليهم برهة . وكانت له حروب ووقائع مع ملوك الفرس ، وشن الغارات على السواد ، فسميت «تنوخ» يومئذ «الدواسر» لما ظهر من شدتهم وبأسهم . وبعض الجهال يقول : إن معرفة النعمان تنسب اليه ، وليس بصحيح . بل تنسب الى النعمان بن بشير الانصارى . وكان والياً على حمص وقنسرين في ولاية معاوية وابنه يزيد ، ومات للنعمان بها ولد ، وجدد عماراتها فنسبت اليه ، وكانت تسمى أولاً ذات

القصور». وقيل إن «سيات» كانت المدينة وهي أهلة نخرج ابن النعمان بن بشير يتصيد ، وكان موضع المعرة أجمة ، فاقترسه السبع فجزع عليه ، وبني له موضعاً عند قبره ، فبني الناس لبنائه ، فنسبت معرة النعمان اليه لذلك . وإنما نسبت الجهال المعرة إلى النعمان بن عدى المعروف بالساطع ، لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بني الساطع ، فظنوا أنها منسوبة اليه ، ولما هلك الساطع تفرقت كلمة «تنوخ» وتشتت أمرهم ، وتنازعوا الرياسة بعده .

ثم إن ملك الفرس غزا الروم ، فأذرع فيهم القتل ، وسبي الدراري ، وخرب العائر ، فأنفذ ملك الروم إلى «تنوخ» وكانت أقرب القبائل اليه في ذلك العصر ، فاستنجدهم على ملك الفرس ، فأتجدهم ، وقاتلوا معه قتالاً شديداً ، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم ، لتظهير له طاعتهم وغناؤهم ، فأجابهم إلى ذلك ؛ فقاتلوا الفرس . وظفروا بهم ، وقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وأبلوا بلاء عظيماً ، فأعجب بهم ملك الروم ، وفرق فيهم الدنانير والثياب وقربهم وأدنانهم ، وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة ؛ وهي مدينة بقرب الأحص على جانب البرية ، وإليها ينسب اللسان السورباني .

هذا منتهى أمرهم في الجاهلية . فلما جاء الإسلام ، قدموا مع
أبي عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنه ، وكانوا أشد من معه من
العرب شوكة وأكثرهم عدداً ، فانتحوا البلاد ، واختطوا الخطط ،
ونزلوا قنسرين ومنبج وسورية وحماة ومعرة النعمان وكفر طاب
وغيرها من بلاد الإسلام ، وتغلبوا عليها ، وكانوا على دين النصرانية
فامتنعوا من أداء الجزية ، وقالوا : ما نؤدى ما يقع عليه اسم الجزية ،
وكانوا أهل قوة وبأس ، فلما سار عمر رضى الله عنه إلى الشام قدموا
عليه فقال : ما أقنع منكم إلا بالدخول في الإسلام أو السيف ، وأمهلهم
سنتين ، ثم إنه أزمهم ما يلزم أهل الذمة من الجزية فأبوا عليه ، وقالوا :
خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية ، فأبى عمر ، ثم أجابهم
إلى أن يأخذها على اسم الخراج ، فاستجاب له قوم منهم ، وأقاموا
بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء وأجداد بني الفصيص ولادة
قنسرين ، وأسلم بعضهم في أيام أبي عبيدة ، وبعضهم في أيام المهدي بن
المنصور ، ودخل منهم قوم إلى بلاد الروم مع جيلة بن الأيهم في النصرانية
وتنوخ من أكثر العرب مناقب وحسباً ، ومن أعظمها
مفاخر وأدباً ، وفيهم الخطباء والفصحاء والبلغاء والشعراء .

وبعد أن يلعب ابن العديم إلى البيوت التي تفرعت عن تنوخ

والتي تحدر منها أبو العلاء ، وبعد أن يذهب في هذه الاستطرادات التاريخية ، يبدأ بتاريخ أجداد أبي العلاء فيقول :
وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلماؤها وشعرائها وأدباؤها من
بنى سليمان ، وهو سليمان بن داوود بن المطهر ، وحيث انتهى بنا
القول إلى التنبيه على كثرة القضاة والفضلاء من بنى سليمان ، فنذكر
الآن من اشتهر منهم بذلك : معرة النعمان ، فمنهم أبو الحسن سليمان
ابن أحمد ، أول من تولى منهم معرة النعمان ، وقال بعض الناس : إنه
ولى قضاءها في سنة تسعين ومائتين إلى أن مات ، وبعضهم يقول :
إن الذي تولى القضاء ستة تسعين ومائتين هو ابنه ، وهذا هو جد
الشيخ أبي العلاء . ومنهم ولد المذكور ، وهو جد أبي الشيخ
أبي العلاء ، أبو بكر محمد بن سليمان بن أحمد ، ولى القضاء بمعرة النعمان
بعد موت أبيه في حدود الثلاثمائة ، وقيل هو الذي تولى سنة ٢٩٠
وكان فاضلاً أديباً ممدوحاً ، وفيه يقول أبو بكر الصنوبري :

بأبي يا بن سلیمان ن لقد سدت تنوخا
وهم السادة شبا ناً لعمرى وشيوخا
أدرك البغية من أض حى بناديك منيخا
وارداً عندك نيلا وفراتا ويليخا

واجداً منك متى استهـ رخ للمجد صريحاً

في زمان غادر الهما ت في الناس مسوخا

وإذ يصل إلى أجداده الأدينين ، يؤرخ لهم بإيجاز . يذكر
نبذة من حياتهم ، وما تميزوا به من الفضائل ، وما شغلوه من المناصب
وما قرأوه من كتب ، وما قالوه من بدائع الشعر . وقد يروى لبعضهم
مقطوعات مما يقتضيه سياق الكلام . فهذا القاضي أبو بكر يصف
شمعة كانت تؤنس الجلاس في ليلة طاب فيها اللهو وصفا السمر :

وصفراء كالتمر مقدودة تسر وتؤنس جلاسها

ومنها : تكون لطالب مقياسها فويق الذراع إذا قاسها

توت إذا أهملوا أمرها وتحيا إذا قطعوا رأسها

ويفنى الدجى بسنى نورها إذا شهد القبض أنفاسها

وتبكي فيقطر من رأسها نجوم ترصع لباسها

يرى الشرب نجما بها طالماً وشمساً إذا جُسيبت كاسها

أنسنا بها ورأينا السرور فلا عدم الشرب إيناسها

وهذا ابنه أبو الحسن الذي تولى قضاء المعرة ، ثم قضاء حمص

التي أشجته نواعيرها ، فوصف أنينها وصفاً مشجياً ، بل وصف أنينه

على فراق صحبه ، وهمومه من وحدته ، وتذرافه الدمع على ماتصرم
من أيام عمره . وصف هذه الحالات النفسية على نعماتها الشجية المحزنة :

وباكية على النهر	تئن ، ودمعها يجرى
تذكرنى بأحبابى	وحالى ليلة النفر
وأذرى مثلما تدرى	وأسعدھا وماتدرى !
على فقدى لأحبابى	وما قدفات من عمرى !
فماهى فيه مشهور	وما أنا فيه فى الستر
كأنى فى بسيط الأار	ض بين الناس فى قبر

وهذا أبو محمد عبد الله بن سليمان — والد أبي العلاء —
الأديب اللغوى الشاعر ، فلا يعفيه من بعض مقطوعات من شعره
رويهال له ، وقد لا يظربنا شعر أبيه فى رثاء جاريتة بقدر ما يهزنا
رثاء المعرى نفسه فى أبيه ، تلك التصيدة التى اقتبس ابن العديم
بعض أبياتها ، وهى تدلنا على مدى حزن أبي العلاء ودموعه الحرى
على فقد أبيه :

أبى . : حكمت فيه الليالى ولم تزل

رماح المنايا قادات على الطعن

فياليت شعري هل يخف وقاره
إذا صار « أحد » في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبادراً

مع الناس أو يأبى الزحام فيستأني
ويمضى ابن العديم في حديثه عن إخوة أبي العلاء : عن أبي
المجد ، عن أبي الهيثم - والآخر شاعر مجيد ، روى عنه أبو العلاء
شيئاً من شعره ، ثم جمع شعره لولده زيد بن عبد الواحد ، وأورد
مقطوعة كان يرويها أبو العلاء ، وهي تدلنا على مدى عناية أخيه
بأثریات البلاد ، فقد قدم مرة على « سيث » فوجد بها رجلاً يقلع
حجارة ، فكتب على حائط من حيطانها بمول ، هذه الأبيات :
مردت بربع من « سيث » فراغى

به زجل الأحجار تحت الماويل
تناولها عبل الذراع كأنما

جنى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أمتلفها؟ شلت يمينك اخلها لمعتبر ، أو زائر ، أو مسائل
منازل قوم حدثنا حديثهم
فلم أر أحلى من حديث المنازل

ولأبي المجد - الأخ الأكبر - ديوان شعر أيضاً . وله ولدان وليا قضاء المعرة ، أحدهما أبو محمد والثاني أبو الحسن ، وقد تولى أبو محمد خدمة عمه بنفسه وكان برّاً به ، وكان يكتب له تصانيفه ، وهذا الذي حدا أبا العلاء أن ينعم بصحبة ابن أخيه وأن يدحه بهذا الشعر الذي يدل على مدى ما قام به هذا القاضي من إجلال لعمه أبي العلاء :

وقاض لاينام الليل عني وطول نهاره بين الخوصوم
يكون أبرّ بي من فرخ نسر بوالده ، وألطف من حميم
سأنشر شكره في يوم حشر أجل ، وعلى الصراط المستقيم
ويروى لنا ابن العديم قطعة ثانية لأبي العلاء في مدح ابن أخيه :
أعبد الله ، ما أسدى جميلاً نظير جميل فعلك غير أمي
سقتني درها ، ودعت وباتت تعوذني وتقرأ أو تسمى
هممت بأن تجنبي الرزايا فرمت وقايتي من كل همي
كأن الله يلهمك اختياري ولم يخطر بوهمي
حمدتك في الحياة أتم ذم وأيامي ذممت أتم ذم
أجلك ما تركت وأنت قاض تعهد مقعد أعمى أصم
جزاك الباريء ابن أخ كرينا أبرّ بمعجز في برّ عم

وما يزال يؤرخ أجداد أبي العلاء وأحفادهم ، واحداً بعد الآخر حتى يصل إلى آخر عقب لهذه الأسرة ، لأستاذه الشيخ أبي إسحق إبراهيم الأديب المحدث الذي اعتمده الملك العادل في مهمة فأرسله إلى حلب والموصل رسولا عنه . وكان ابن العديم لا يريد أن يترك غصناً من هذه الشجرة الباسقة إلا مرّ عليه يتأمل محاسنه ، وما يزال حتى يقتطف لكتابه بعض ثماره . فهذا مدرك ، أو أبوسهل أحد أفراد هذه العائلة الكريمة تعصف به الأسفار إلى مصر فيكتب عنها ما لا يروق محبي مصر . . ماذا ؟ لقد هجا مصر هجاء مرأ ، ومع أن مصر قد عرفت بكرمها المتناهي للضيف ، ويعطفها على الغريب . فقد لقي أبو سهل أحد أحفاد أبي العلاء عنناً وظلماً وجوراً حتى انفجر صدره بهذين البيتين :

ظلمت مصر وجارت لاجرى النيل عليها

فاحى الله زماناً أحوج الناس إليها

ولأبي سهل هذا شعر رواه ابن العديم في كتابه يدل على أن

الغربة آلمت أبا سهل . وأنه لقي في سفره أوانا من الألم عبر عنها

بهذه الشكوى الحزينة :

إذا لم تستطع سكنى بلاد نشأت بها ، فكن منها قريباً

بحيث تشم نشر الريح منها وتسأل مخبراً عنها مجيباً
فان أشد أحداث الليالى مع الإنسان أن يمسى غريباً
بأرض لا يرى فيها صديقاً يسرّ به ، ولا يلتقى حبيباً

* * *

وبعد ، فقد طال هذا الفصل ؛ وقد أوجزت ما استطعت
الإيجاز . وهكنا ، ينهى كلامه ، بعد تاريخ من اشهر من أفراد
هذه العائلة حتى الذين عاصروه ، بهذه الجملة :

« فلهذه نبذة من ذكر فضلاء بنى سليمان وقضاتهم وعلمائهم ،
ومن أراد استقصاء أخبارهم وفضائلهم وأشعارهم فعليه بكتابي المطول
في تاريخ حلب ، ففيه مقنع لمن قصد شيئاً من ذلك وطلب »
فأين جميع أجزاء ذلك الكتاب ؟ وهل يتاح لنا أن نرد بعض
أجزائه المتفرقة في مكتبات الشرق والغرب إلى موطنه الأصلي ؟
وهل يقدر لنا أن ننشر هذه الموسوعة التاريخية الكبرى في يوم ما
نشر ايرضى عنه العلم والأدب ؟

أرجو ذلك !

سوره . عمارة . صفة خلقه

بعد أن استوفى ابن العديم الكلام على نسب أبي العلاء وعلى أفراد عائلته في أكثر من عشرين صفحة من هذا الكتاب ، تكلم عن مولده ومنشئه وعماه وصفة خلقه ، فقال :

« أما مولده فبمعرة النعمان ، وأمه هي بنت محمد بن سبيكة ، وأظن أن أباه من أهل حلب ، وخاله علي بن محمد سبيكة الذي يقول فيه :

كأن بني سبيكة فوق طير

يجوبون الغوائر والنجادا .

وتوفيت والدته وهو غائب عنها حين رحل إلى بغداد سنة أربعائة ، وقد رثاها بأبيات هي في « سقط الزند » وقرأت بخط أحمد بن علي بن عبد اللطيف المعري ، وهو أحد من قرأ على أبي العلاء وروى عنه ، ويعرف بابن زريق ، قال : وولد - يعني أبا العلاء - يوم الجمعة ؛ عند غروب الشمس ، لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .

ونقلت من خط الأديب الأستاذ أبي عبد الله محمد بن علي
العظيمي الحلبي في تاريخه ، وأنبأ به عند المؤيد بن محمد النيسابوري
وغيره ، قال : وفيها — « يعني سنة ثلاث وستين وثلاثمائة »
ولد الشيخ أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي بمصر
النعمان من رقعة الشام . قال العميد : ولد أبو العلاء في سنة
ست وستين .

وهذا العميد الذي نقل عنه العظيمي ، هو العميد أبو يسر ،
خير بن محمد بن علي التنوخي المعري . وهذا ليس بصحيح .

وذكر الوزير أبو غالب ، عبد الواحد بن مسعود بن الحصين
الشيبياني في كتابه الذي جمعه في « المختار من أشعار الشعراء »
وذكرهم على حروف المعجم ، وأخبرنا بذلك إجازة عنه الحافظ
بو عبد الله محمد بن محمود بن النجار ، قال : « ولد - يعني أبا العلاء -
لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، ومرضت
عيناه في سن الطفولية وذهبتا . والصحيح في مولده ما أخبرنا به
أبو اليمن ، زيد بن الحسن بن زيد الكندي كتابة وقراءة عليه .
وعلى هذا النسق يروى أكثر من رواية واحدة تدل على مدى
قده وما يزال ينفي رواية ويثبت أخرى إلى أن يطمئن هوسه في

حادثة مولده .

فاذا اطمأن إلى هذه الناحية تكلم على ذهاب بصره بقوله:
«أخبرنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله بن رواحة الحموي ، قال:
أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ ، إجازة إن لم يكن سمعاً، قال:
سمعتُه - يعني أبا محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الأيادي المعري -
يقول :

دخلت على أبي العلاء وأنا صبي مع عمي أبي طاهر نزوره ،
فرايته قاعداً على سجادة لبد ، وهو يسبح ، فدعا ومسح على رأسي
وكأني أنظر إليه الساعة وإلى عينيه وإحداها بارزة والأخرى غائرة
جداً ، وهو مجدّر الوجه نحيف الجسم . »

إشغاله بالعلم وشيوخه

ثم يعتقد ابن العديم فصلا عن اشتغاله بالعلم، وشيوخه الذين أخذ عنهم، فنفهم من هذا الفصل أنه قرأ القرآن العظيم بالروايات على شيوخ يشار إليهم في القراءات، وقرأ اللغة والنحو بعرة النعمان على والده، ودخل، وهو صبي، إلى حلب فقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبى. يقول ابن العديم: «وقرأت بخط بعض أهل الأدب، وأظنه محمد بن الخضر بن أبي مهزول المعروف بالسابق، قال: وكان ابن سعد يروى في ديوانه — يعني ديوان المتنبى — في قصيدته التي مطلعها:

أزائر ياخيال أم عائد

وذلك أنها لم تكن مما قرأه على المتنبى، وهي مما أنفذه إليه:
أو موضعا في فناء ناحية تحمل في التاج هامة العاقد
فرد عليه أبو العلاء وقد اجتمع معه بحب وهو صبي.

أو موضعا في فتان ناحية

فلم يقبل ذلك ابن سعد، ومضى إلى نسخة عراقية صعدت مع أبي علي بن أريس من العراق فوجد القول ماقاله أبو العلاء.

ثم سافر إلى بغداد في سنة تسع وتسعين للاستكثار من العلم، فأخذ بها عن أبي الحسن علي بن عيسى الربعي، وأبي أحمد عبد السلام ابن الحسين البصرى المعروف بالواجكا، وأبي علي بن الحسن بن حكيم السكرى النحوى اللغوى، وذكر أبو البركات علي بن أحمد بن محمد ابن أبي سعيد الأنبارى في طبقات الأدباء له قال: وذكر أنه - يعنى أبا العلاء - لما قدم بغداد دخل على علي بن عيسى الربعي ليقراً عليه شيئاً من النحو فقال له الربعي: ليصعد الإصطبل (١) فخرج من عنده مغضباً فلم يعد إليه.

ثم قال: وبلغنى أنه إنما دخل إلى بغداد لتعرض عليه الكتب التى فى خزائن بغداد، لما وصف له من كثرتها، ولم تكن رحلته لطلب دنيا.

وقد ذكر فى بعض كلامه وسنورده بتمامه: وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب، ولا أتكثر ببقاء الرجال، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس ما كان لم يدعف الزمن بإقامتى فيه. ثم ذكر العلاء الثقات الذين أخذ عنهم الحديث، وهم كثيرة، ولكن الذى لفت نظرنا من جميع من ذكرهم ابن العديم اسم سيدة

(١) الإصطبل هو الاعمى بلغة أهل الشام على رواية ياقوت، وفى شفاء الغليل

الغضابى أن اللفظة معربة

روى عنها الحديث ..

أتدرى من هذه المحدثة الفاضلة ؟ هي جدة أبي العلاء أم سلمى بنت الحسن بن إسحاق بن ببلل، وقد أضاف هذا الاسم إلى طبقة المحدثين ليرينا أى بيت هذا الذى لمعت فى سمائه هذه الكواكب الساطعة والنجوم المشرقة .

ويختتم ابن العديم هذا الفصل بقوله :

« وخرج من حديثه سبعة أجزاء رويت عنه ، وهى عندى بخط أبى الحسن على بن عبد الله بن محمد بن أبى جرادة ، رواها عن أحمد ابن على بن عبد اللطيف بن زريق المعرى عنه . »

تلخيص أبي العلاء

وقد عقد ابن العديم بعد هذا الفصل فصلاً آخر .

حدثنا في الفصل الماضي عن أساتذته، وكان لابد من أن يحدثنا في هذا الفصل عن تلامذته : من قرأ على أبي العلاء، أو روى عنه ، فذكر طائفة من أئمة العلماء والأدباء والمحدثين ، من أهل بلده ، من الشاميين ، من الحلبيين ، من الأندلسيين ، ومن أكثر البقاع الإسلامية وقد ملأت هذه الأسماء أكثر من صفحة واحدة . وهنا يقول ابن العديم : «فهؤلاء كلهم أئمة وقضاة وعلماء أثبات ، وأدباء رواة ، وحفاظ ثقات ، رووا عن أبي العلاء وكتبوا عنه ، وأخذوا العلم واستفادوا منه لم يذكره أحد منهم بطعن ، ولم ينسب حديثه إلى ضعف ولا وهن»

لقد كتب ابن العديم هذه الجملة بعد أن أورد ما يقرب من مئة اسم من أكابر العلماء والقضاة والأئمة ممن عرفوا بالورع والزهد والتقى ، ليؤيد وجهة نظره في الدفاع عن أبي العلاء ، ولبيان أن مفتريات خصومه واهية لا أساس لها .

ثم يختم هذا الفصل بقوله :

«وكتب الينا أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز من الإسكندرية أنه سمع أحمد بن محمد الأصهباني الحافظ يقول : وأما هذان الإمامان - يعني أبا زكريا التبريزي وأبا المكارم الأبهري - فمن أجلاء من رأيتهم من أهل الأدب ، والمتبحرين في علوم العرب ، وإلى أبي العلاء انتمأؤهما ، وفي العربية اعتزأؤهما . وقد أقاما عنده برهة من الزمن للقراءة ، والأخذ عنه والاستفادة ؛ وقد أدركت سواهما جماعة من أصحابه الناقلين عنه بمكة والعراق والجليل والشام وديار مصر ، وأنشدوني عنه ما أنشدتم وحدثهم ؛ ومن جملتهم أبو إبراهيم الخليل ابن عبد الجبار القرائي . رأيتُه بقزوين ، وروى لي عنه حديثاً واحداً مسنداً يرويه عن أصحاب خيشمة بن سليمان القرشي الطرابلسي ، وأقام أبو زكريا التبريزي أكثر من سنتين يقرأ عليه »

وهكذا ، فقد كان يتصده العلماء من أقصى البلدان الإسلامية يأخذون عنه العلم والشعر والأدب ، وقد يتجاوزون ذلك إلى القصة والحديث والتصوف ، ثم يعودون وقد ملأوا الدنيا إعجاباً بما رأوه من عبقرية هذا الفيلسوف الزاهد المتواضع الذي أوى إلى قرينته بعيداً عن الناس . لا تستهويه هذه الضلالات التي تستهوى الكثيرين من البشر ! ..

سيرته الدينية

وإذ كان المعري متهما في عقيدته وعُرف بين العوام وأنصاف المتعلمين بالتعطيل والزندقة ، كان هم ابن العديم أن ينفي عنه هذه التهم الباطلة ، وأن يحيط بحياته بكل ما يدفع عنه هذه الريب والشكوك. لقد حدثنا عن نشأته ، وعن جانب من طفولته وحدثته ، عن أساتذته ، وعن أخذ عنهم من الأئمة والقضاة - وكانهم قد عرف بالورع والتقى وبالزهد والتجرد - وكان لا بد له بعد هذه التوطئة من أن يعقد فصلا عن ميوله الدينية ، ولكنه لم يحاول أن يبحث هذه الناحية لذاتها ، بل لجأ إلى ما يؤكد أن المعري كان من أبعد العلماء عن هذه التهم التي لفتتها خصومه وحاسدوه .

ولقد ضاف ابن العديم إلى فصول كتابه فصلا ذكر فيه شيئا مما وقع إليه من الأحاديث النبوية عن أبي العلاء مسندا ، ورواة الأحاديث المسندة ممن اتصفوا بالتقى والورع ، فنقل عن أبي العلاء عدة أحاديث مسندة عن النبي ﷺ ليجلو هذه الناحية من حياته .

قال ابن العديم :

«أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن البنا بدمشق ، وأبو سعد

ثابت بن مشرف بن أبي السعد البنا بحلب البغداديان ، قال :
أخبرنا أبو بكر محمد بن عبيد الله بن نصر الزاغوني ، حدثنا أبو طاهر
محمد بن أحمد بن أبي الصقر الخطيب الأنباري من لفظه ، أخبرنا
أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي بقراءتي عليه في داره
بـعرة النعمان ، حدثني أبو زكريا يحيى بن مسعر التنوخي المعري ،
حدثنا أبو عروبة بن أبي معشر الحراني ، حدثنا هو بر ، حدثنا محمد بن
عيسى الخياط ، عن أبي الزناد ، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ
أنه كان يقول :

إن الحسد لياً كل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وإن الصدقة
تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، فالصلاة نور المؤمن ، والصيام
جُنة من النار . »

وقد روى عدة أحاديث مسندة على هذا النسق ، ولعله أراد ،
كما قلت ، أن يضيء بعض جوانب من حياته بهذه النواحي المشرقة
من حياة العلماء ليرد من طريق غير مباشر على خصومه الذين
جردوه من الإيمان ووضعوه في طليعة الملحد المعطلين .

كتاب أبي العلاء

وينتقل ابن العديم من هذا الفصل إلى فصل آخر ، خصه بكتّاب أبي العلاء الذين كانوا يكتبون له ما ينشئه من النثر والنظم والتصنيف والإيماء ، وقد لا يهيم القارئ أن نعدله جميع من ذكرهم ابن العديم فحسبنا أن نلجأ إلى بعضهم ، فمنهم ابن أخيه الذي تقدم ذكره والذي كان برأ بعمه أبي العلاء فدحه بأكثر من قصيدة واحدة . وجعفر ابن صالح . وأبو الحسن علي بن عبد الله الذي يقول ابن العديم عنه : إنه من العدول الأمانة الفضلاء ، وهو الذي لزم الشيخ أبا العلاء وكتب كتبه بأسرها : كتب من المصنف الواحد عدة نسخ ، وكان خطه مورقاً ، حسن الضبط والالتقان .

ثم قال :

«ووقفت على فصل في ذكره للشيخ أبي العلاء قال فيه : لزمتم مسكني منذ سنة أربعائة . واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيدهِ إلا أن اضطر إلى غير ذلك ، فأملت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبيد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته فألزمني بذلك حقوقاً جمة . وأيادي بيضاء ، لأنه أفنى في زمنه . ولم

يأخذ عما صنع ثمنه . والله يحسن له الجزاء . ويكفيه حوادث الزمن
والأرزاء »

ثم عدد غير واحد ممن كتب له ولازمه . وما زال حتى ختم
هذا الفصل بهذه الفقرة :

« ومن كتابه جماعة من بنى أبي هاشم لا أتحقق أسماءهم ، فأنتى
وقفت على رسالة لأبي العلاء تعرف برسالة « الضبعين » كتبها إلى
معز الدولة : قال بن صالح يشكو إليه رجلين : أحدهما الشريف بن المحبرة
الجلبي ، كان يؤلبان الناس عليه . وينسبانه إلى الكفر والإلحاد ، وقد
حرفا بيتاً من « لزوم مالا يلزم » عن موضعه ليثبتاً عليه الكفر بذلك ،
قال فيها : « وفي حلب ، حماها الله ، نُسخ من هذا الكتاب بخطوط
قوم ثقات يعرفون ببني أبي هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بجبل
الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه ، وإن أحضرت
ظهرت الحجة بما قلت فيه » .

وهكذا ، فلا يترك ابن العديم نبذة أو حادثة تبرئه من وشايات
خصومه إلا أثبتها في كتابه .

تصانيفه وآلِيفه

وفى معجم الأدباء لياقوت فصل خاص عن أبي العلاء المعرى يحتل أكثر من مائة صفحة عرض فيه إلى بيته ونسبه وشعره ونثره ومعتقده وآراء خصومه فيه ، كما عرض الى كتبه ورسائله ، ومن يرجع الى هذا الفصل ويقارنه بما كتبه ابن العديم فى الفصل الذى أتى فيه « على ذكر تصانيفه ومجموعاته وآلِيفه وأشعاره المدونة ورسائله المفضنة » — يتراءى له أن النص واحد وإن اختلفا بعض الاختلاف ..

فمن من الأدبيين اعتمد على الآخر فى كتابة هذا الفصل ؟ أحب أن أعتقد أن ياقوت بعد أن جمع كل ما قيل عن أبي العلاء سواء له أو عليه — اعتمد ابن العديم فى كتابة هذا الفصل لما اتصف به قاضى القضاة من البحث والتحقيق ، وكما اعتمده فى تاريخ بنى العديم لـ كتابه هذا ، فقد اعتمده فى هذا الفصل ، ولا نتردد أن نقول إن ياقوت قد اطلع على رسالة « الانصاف والتحرى » فأخذ منها مآرقة وترك ما لا يتلاءم ورأيه ، ورأى ياقوت فى أبي العلاء هو غير رأى ابن العديم . نعم ، لا نتردد أن نقول إن ياقوت اطلع

على رسالة ابن العديم ، وحببتنا أنه ألمع إلى الرسالة في غير موضع واحد . .

يسرد ياقوت جميع كتب أبي العلاء ويصفها دون تعليق عليها أو يعلق عليها برأى خصومه ، على حين أن ابن العديم لا يترك فرصة دون أن يبرئه مما اتهم به ، ولا يتردد أن يرد على خصومه . فعند ما أورد ياقوت ذكر كتاب « الفصول والغايات » مثلاً وصف الكتاب بما يأتي :

« والمراد بالغايات القوافي ، لأن القافية غاية البيت ، أي منتهاه . وهو كتاب موضوع على حروف المعجم . ما خلا الألف لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين ، ولكن تجيء الهمزة وقبلها ألف ، مثل العطاء والكساء وكذلك الشراب والسراب في البناء . ثم على هذا الترتيب ، ولم يعتمد فيه أن تكون الحروف التي يبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجيء مختلفة . وفي الكتاب قواف تجيء على نسق واحد ، وليست الملقبة بالغايات ، ومجيئها على حرف واحد. مثل أن يقال : عمامها ، وغلامها ، وغمامها ، وأمراً ، وتراً ، وما أشبه . وفيه فنون كثيرة من هذا النوع . وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب

قبل رحلته إلى بغداد وأمه يعد عوده إلى معرة النعمان . وهو سبعة أجزاء ، مقداره مائة كراسة» (١)

أما ابن العديم فمع إثباته بعض هذا الوصف . أضاف إلى ذلك قوله : . . وهو الكتاب الذى افترى عليه بسببه . وقيل إنه عارض به السور والآيات تعدياً عليه وظاماً ، وإفكاً به أقدموا عليه وإثماً . فان الكتاب ليس من باب المعارضة فى شىء . ومقداره مائة كراسة .
وقل مثل ذلك فى كتاب « زجر النابح » الذى رد فيه أبو العلاء على من تحرش به لتأليفه ديوانه « لزوم ما لا يلزم » فقد فسرياقوت أسبب وضع كتاب « زجر النابح » بقوله :

« إن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم ما لا يلزم يريد بها التشرر والأذية ، فالزم أبا العلاء أصدقؤه أن ينشئ هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره » (٢)

على حين أن ابن العديم لا يعتمد إلى التاميح بل يصرح بطريقته فيقول : وله كتاب يتعلق بلزوم ما لا يلزم أيضاً سماه « زجر النابح » يرد فيه على من طعن عليه فى أبيات من هذا الكتاب ، ونسبه إلى

(١) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٤٦ طبعة مصر

(٢) المصدر نفسه

الكفر فيها ، فبين وجوهها ومعانيها . وكتاب يتعلق بلزوم مالا يلزم أيضاً سماه « نجر الزجر » يعنى أصل الزجر وضعه بعد هذا الكتاب الأول ، يرد فيه أيضاً على من طعن عليه في أبيات غير الأبيات المذكورة في زجر النابج . ويعرضها محرقة عن مواضعها .
فبين التحريف ، وبين وجوه تلك الأبيات ومعانيها »

وقيمة ياقوت أنه جمع طائفة من الأقوال والنصوص ، سواء من كان مع أبي العلاء أو عليه ، بخلاف ابن العديم الذي كان يبرئ أبا العلاء من جميع ما اتهم به .
يقول ياقوت :

« والناس في أبي العلاء مختلفون . فمنهم من يقول : إنه كان زنديقاً ، وينسبون إليه أشياء مما ذكرناها . ومنهم من يقول : كان زاهداً عابداً متقلاً . يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والقناعة باليسير .
والإعراض عن أعراض الدنيا » (١)

فما هو رأى ياقوت ؟

إنه لا يتحرج أن يحكم عليه بسوء المعتقد حين يقول :

« وكان متهماً في دينه . يرى رأى البراهمة (٢) . لا يرى إفساد

(١) معجم الأدب ، ج ٣ ص ١٤٢ طبعة مصر

(٢) قوم من البراهمة لا يجوزون بعثة الرسل

الصورة ، ولا يأكل لحمًا ، ولا يؤمن بالرسول والبعث والنشور .
وعاش شيئاً وثمانين سنة ، لم يأكل اللحم منها خمسا وأربعين سنة
وحدثت أنه مرض مرة فوصف الطبيب له الفروج (١) . فلما جرى
به لمسه بيده وقال : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل
الأسدا . وقد أوردنا من شعره ما يستدل به على سوء معتقده ، ويخبرك
بنحلته ومستنده » (٢)

ولعل هذه الآراء الخاطئة هي التي حدثت بابن العديم أن يكتب
رسالته التي نحن بصدددها . وكان ياقوت لم يطمئن إلى حكمه على
العلاء ، فما كاد يسترسل في حديثه عنه حتى أخذ ينتقض رأيه بنبرة
لابن العديم ينقلها من كتابه « الإي نصاب والتحرى » فيقول :

« قال - أي كمال الدين - : وقرأت بخط أبي المعري في ذكره
وكان ، رضى الله عنه ، يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ، وتعمل
تلامذته وغيرهم على إسانه الأشعار ، يضمونها أقوال الملاحدة قصداً
لهلاكه ، وإيثاراً لا يلائم نفسه ، فقال - رضى الله عنه - :

حاول إهوانى قوم فما واجهتهم إلا باهوان

(١) الدجاج الصغير

(٢) معجم الأدباء الجزء الثالث ص ١٢٥ طبعة مصر

يخرشونى بسعاياتهم
لو استطاعوا لوشوا بى إلى الـ
فغيروا نية أخوانى
وقال أيضاً :

وغريت بذمى أمة
وعبدت ربى ما استطعت
وبحمد خالقها غريت
وفرتى الجهال حا
ومن برّيته بریت
سدة على وما فريت
سعرُوا على فلم أحس
وعندهم أنى هريت
وليس علينا بعد هذه التوطئة من أن نسرّد أسماء كتب
ورسائل أبى الهاء التى أوردها ابن العديم فى كتابه ، فهذا الفصل
وإن طال لا يخلو من فائدة .

* * *

قال ابن العديم :

فأول ما ألف بعد انقطاعه فى منزله ، بعد رجوعه من بغداد ،
الكتاب المعروف :

١ - الفصول والغايات ، فى تمجيد الله تعالى والعظائم . وهو
موضوع على حروف المعجم . وأراد بالغايات : القوافى ، لأن القافية
غاية البيت . وفيه قوافى تجيء على نسق واحد ، وليست الملقبة

بالغايات . وهو الكتاب الذى افترى عميه بسببه . وقيل إنه عارض به السور والآيات تعدياً عليه وظلماً ، وإفكاً به أقدموا عليه وإثماً . فان الكتاب ليس من باب المعارضة فى شىء . ومقداره مائة كراسة .

٢ - وكتاب السادن^(١) وضعه فى ذكر غريب هذا الكتاب . وما فيه من اللغة ، ومقداره عشرون كراسة .

٣ - وكتاب إقليد الغايات^(٢) ، وهو مشتمل على تفسير اللغز ، ومقداره عشر كراريس .

٤ - ثم ألف الكتاب المعروف بالأليك والغصون ، وهو كتاب كبير ، ويعرف بكتاب الهمزة والردف ، بنى على إحدى عشرة حالة من الحالات ، الهمزة فى حال أفرادها وإضافتها ومثال ذلك : السماء بالرفع ، السماء بالنصب ، السماء بالخفض ، سماء : يتبع الهمزة التنوين ، سماءه : مرفوع مضاعف

وبعد هذه الاستطرادات التى تجدها فى معجم الأدباء بقول ابن العديم : ومقدار هذا الكتاب ألف ومائتا كراسة ، وهذا

(١) فى كشف الظنون : « السادر » ، وفى معجم الادباء : « الشاذن » ، وحققه أحمد

تيمور باشا « السادن » ، وهذا ما رواه الذهبي أيضاً ،

(٢) الاقليد المفتاح

الكتاب قليل الوجود لكبره ، ولم أقف إلا على جزء واحد منه ،
وبعضه موقوف في خزانة كتب النظامية ببغداد ، وبالديار المصرية
منه نسخة كانت في خزائن المصريين ، صارت الى القاضي الفاضل
عبد الرحيم بن علي البيساني ، وانتقلت الى ولده القاضي الأشرف
بعده ، ثم صارت في جملة كتب إلى خزانة الملك الصالح أبوب بن
محمد بن أبي أيوب ، وأظنها في ستين مجلدا .

٥ - وكتاب في تفسير الهمزة والردف ، جزء واحد .

٦ - والكتاب المعروف بتضمين الآي ، يتضمن العظات والحث
على تقوى الله تعالى ، ألف هذا الكتاب لبعض الأمراء ، وقد
سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، فعمل هذا الكتاب يعظه فيه ، ويحثه
على تقوى الله ، وأتى فيه عند انقضاء كل فصل بآية من القرآن ، وربما
اقتصر على بعض الآيات ، أو جاء بآيتين وأكثر إذا كانت من
ذوات القصر ، كآيات « عبس » ونحوها ، فمنه ما هو على حروف
المعجم ، وقبل الحرف المعتمد ألف ، مثل أن يقال في الهمزة : بناء
ونساء وفي الباء : ثياب وعباب . وهكذا إلى آخر الحروف ، ويضمنه
في آخر الفصل بآية . ومنه فصول على فاعلين ، مثل : باسطين وقاسطين .
وعلى فاعلون مثل حامدون وعابدون . ومنه ما على غير هذا الفن .

ومقدار هذا الكتاب أربعائة كراسة .

٧ - والكتاب المعروف بتاج الحرة . وهو فى عظات النساء خاصة وتختلف فصوله ، فمنها ما يجيء بعد حرفه الذى يثبت ثبات الروى ياء التأنيث كقولك : شائى ، وتشائى ، وتسائى . وهابى ، وترابى . ومنه ما هو مبنى على الكاف نحو غلامك وكلامك . ومنها ما يجيء على تفعلين مثل : ترغبين وتذهبين ونحو ذلك . وأنواعه كثيرة وهو كتاب لبعض الجليلات من النساء ، ويغلب على ظئى أنها طرود زوج ابن مرداس . ومقداره أربعائة كراسة .

٨ - والكتاب المعروف بسيف الخطبة ، يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب للجمع والعيدىن والخسوف والكسوف ، والاستقاء وعتد النكاح ، وهو مؤلف على حروف العجم ، فيها خطب عمادها الهمزة وخطب بنيت على الباء ، وخطب على التاء ، وعلى الذال ، وعلى الزاء ، وعلى اللام والميم والنون ، وتركت الجيم والحاء وما جرى مجراها ، لأن الكلام المتقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سَجَسَجًا (١) سهلا ، ومقداره أربعون كراسة .

ثم قال : وظفرت له بجزء فيه خطب نلخم القرآن العزيز ، فيه عدة

(١) المسجج والسهل بمعنى واحد

خطب لذلك ، مقداره خمس كراريس .

٩ - والكتاب المعروف بخطب الخليل يتكلم فيها على السنة

الخليل ، ويذكر على لسان كل فرس خطبة يحمد الله تعالى فيها ويعظمه

ويقول في أول كل خطبة : إن الله قادر على أن ينطق فرساً صورته

كذا وكذا فيقول : الحمد لله الذي خلقني كذا وكذا . ومقداره

عشر كراريس .

١٠ - والكتاب المعروف بخطبة الفصيح ، يذكر فيه الألفاظ

التي تروى عن ثعلب في كتاب الفصيح ضمن كلام فصيح منشور

في كل باب من أبواب الفصيح ، ومقداره خمس عشرة كراسة .

١١ - وكتاب شرح فيه ما جاء في هذا الكتاب من الغريب

يعرف بتفسير خطبة الفصيح : لا أعلم مقداره ، ولم أقف عليه .

ونفهم من هذه الفقرات أن ابن العديم قد وقف على أكثر

كتب أبي العلاء ، وأن التسم الأعظم من كتبه المفقودة قد كانت

موجودة في عصر ابن العديم !

١٢ - وكتاب يعرف برسيل الرموز^(١) مقداره ثلاثون كراسة

١٣ - ومن الكتب الصغار كتاب يعرف بخجاسية الراح في

ذم الخمر خاصة على حروف المعجم ، ومعنى هذا الاسم أن كل حرف من حروف المعجم ما خلا الألف يذكر فيه خمس سجعات مضمومات وخمسة مفتوحات ، وخمسة مكسورات ، وخمسة موقوفات . مقداره عشر كراريس .

١٤ - وكتاب يعرف بالمواعظ الست ، سأل فيه بعض الوعاظ ، ومعنى هذا اللقب أن الفصل الأول منه في خطاب رجل والثاني في خطاب اثنين ، والثالث في خطاب جماعة ، والرابع في خطاب امرأة واحدة ، والخامس في خطاب امرأتين ، والسادس خطاب نسوة . ومقداره خمس عشرة كراسة .

١٥ و١٦ - وكتاب يعرف بوقفة الوعاظ ، وكتاب يعرف بدعاء ساعة ، وهما مختصران ، ولا أعلم مقدار حجمهما .

١٧ - وكتاب دعاء الأيام السبعة ، لا أعلم مقداره .

١٨ - وكتاب « حرز الخيل » لا أعلم مقداره .

١٩ - وجزء فيه حرز وتعويد ، لا أعلم مقداره .

٢٠ - وكتاب يعرف بسجع الحمام ، تكلم فيه على آل بن حاتم أربع ، وكان بعض الرؤساء سأله أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث

على الزهد ، ومقداره ثلاثون كراسة .

٢١ - وكتاب يعرف بعظات السور ، يتكلم فيه على لسان سور القرآن ، وتتظم كل سورة ممن قرأها بالشواذ ، ويتعرض ، للوجه الشاذ ، مقداره ست كراريس .

٢٢ - وكتاب يعرف بالجلي والجلي^(١) ، سأل فيه رجل من أكابر الحلبيين يقال له أبو الفتح عبد الله بن إسماعيل بن الجلي ، وهو رجل فاضل من أكابر الحلبيين وأعيانهم ، وأرباب النعمة منهم ، له مصنفات ورواية للأحاديث النبوية ، سمع منه الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي وأبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي جرادة الحلبى وغيرهما ، مقدار هذا الكتاب عشرون كراسة .

٢٣ - وكتاب يعرف «الصاهل والشاحج» يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ، وهو كتاب حسن ، صنفه للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومى ، مولى منجوتكين العزيزى . وكان أبو شجاع هذا والى حلب من قبل المصريين فى أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر . وكان سبب تصديفه أنه رفع إلى فاتك أن حقًا يجب له

(١) اسم هذا الكتاب مختلف فيه .

على بعض أقرباء أبي العلاء وحب على أبي العلاء سؤاله فيه . مقداره أربعون كراسة .

٢٤ - وكتاب لطيف في تفسير «الصاهل والشاحج» يعرف بلسان الصاهل والشاحج . عمله أيضا لعزير الدولة المذكور ، ومقداره

ثمانى عشرة كراسة . وبعض الجهال يقول إنه عمله لأبى الدوام ثابت ابن محمود بن نصر بن صالح . وكان يلقب عزيز الدولة وهو غير صحيح . بل الذى عمله لأبى الدوام «اللامع العزيرى» وسيأتى ذكره

٢٥ - والكتاب المعروف بالقائف . يذكر فيه أمثالا على معنى «كليلة ودمنة» عمله لعزير الدولة أبى شجاع المذكور أيضا . ألف منه أربعة أجزاء ، ثم قطع تأليفه لموت الذى أمر بإنشائه . وهو أبوشجاع فاتك . فإنه قتل بالمرکز بقاعة حلب ، قتله مملوك له هندی يقال له توذون سنة ثلاث عشرة وأربعمائة . ومقداره ستون كراسة .

٢٦ - وكتاب يعرف بشرف السيف . عمله لأمير الجيوش نوستكين الذيرى والى دمشق وحلب . وكان بلغه عنه كلام جميل ويوجه اليه بالسلام ، ويحنى المسئلة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل .

٢٧ - وكتاب يعرف بالسجع السلطانى . يشتمل على مخاطبات الجنود والوزراء والولاة وغيرهم ، عمله لبعض الكتاب القليلى الصناعة

ليستعين به على الكتابة . مقداره ثمانون كراسة .

٢٨ — وكتاب يعرف بسجع الفقيه مقداره ثلاثون كراسة .

٢٩ — وكتاب يعرف بسجع المضطرين ، وهو كتاب لطيف

عمله لرجل مسافر يستعين به على شؤون دنياه . لأعلم مقداره .

٣٠ — وكتاب «ديوان الرسائل» وهو ثلاثة أقسام . منها

طوال كرسالة الملائكة ورسالة الغفران : كتبها إلى علي بن منصور

الحبي المعروف بدوخلة ، جوابا على رسالة كتبها إليه يعتب عليه في

أنه بلغه عنه أنه ذكره فقال : هو الذي هجا أبا القاسم ابن المغربي .

فكتب إليه رسالة الغفران جواباً عنها . والرسالة السندية كتبها إلى

سند الدولة بن ثعبان الكتابي والى حلب من قبل المصريين في

معنى خراج على ملكة بمصرة النعمان . ورسالة العرض ونحو ذلك .

والثاني هو دون هذه في الطول ، مثل رسالة المنيح ورسالة

الإغريض ، والثالث رسائل قصار كنحو ما يجري به العالم في المكاتبات ،

ومقداره ثمانمائة كراسة .

٣١ — وكتاب يعرف بخادم الرسائل . فيه تفسير بعض ما جاء

في رسائله هذه من الغريب ، لا أعلم مقداره .

٣٢ — وكتاب تفسير رسالة الغفران ، لا أعلم مقداره .

٣٣ — وكتاب تفسير رسالة الأغريرض وهي التي كتبها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وقد سيراليه كتابه الذي اختصر فيه إصلاح المنطق ، فكتب إليه برسالة الأغريرض يقرضه ويصف اختصاره للإصلاح ، ومقداره خمس كراريس .

٣٤ — وكتاب يعرف برسائل المعونة ، وهي ما كتب على ألسن قوم . لا أعلم مقداره .

٣٥ — والرسالة المعروفة بالحصنية^(١) لا أعلم مقدارها .

٣٦ — ورسالة عملها على لسان ملك الموت عليه السلام ، لا أعلم مقدارها .

٣٧ — وكتاب لطيف يعرف بالسجعات العشر ، موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات في الوعظ ، لا أعلم مقداره .

٣٨ — ومن الأشعار التي نظمها : ديوانه المعروف «بسقط الزند»^(٢) وهو مقاله في أيام الصبا في أول عمره ، وهو من

(١) في معجم الادباء الرسالة الحصبة

(٢) قال التبريزي : لما حضرت أبا العلاء ، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة وشيئا من تصانيفه ، فرأيت يكره أن يقرأ عليه شعره في صباه ، الملقب بسقط الزند ، وكان يغير الكلمة بعد للكلمة منه ، إذا قرأت عليه ، ويقول معتذراً عن تأييه وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحت نفسي فيه فلا أشتى أن أسمعه ، وكان يحنى على الاشتغال بغيره من كتبه

أحسن أشعاره ، وقد اعتنى به العلماء وشرحوه ، مقداره خمس عشرة
كراسة ، تزيد أبياته المنظومة على ثلاثة آلاف بيت ، شرحه الخطيب
التبريزي وشرحه ابن السيد البطليوسي وأحسن شرحه .

٣٩ - وكتاب يعرف بضوء السقط ، يشتمل على تفسير ما جاء
في سقط الزند من الغريب ، مقداره عشرون كراسة ، وضع هذا
الكتاب لتلميذه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني ،
وكان رجلاً فاضلاً قصده إلى معرفة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه
بعد أن استعفى من ذلك ثم أجابه فقرأ عليه الكتب إلى أن مات ،
وقد أشار إلى ذلك في مقدمة ضوء السقط ، وأقام أبو عبد الله
الأصبهاني بحلب ، وروى عن أبي العلاء كتباً متعددة من تصانيفه
وهو الذي سأله أبو العلاء أن يشرح له سقط الزند . فشرحه ، ووسمه
بضوء السقط ، وقد روى أبو عبد الله عنه وعن أبي صالح محمد بن
المهذب المغربي وكان من الأعيان العلماء . روى عنه أبو الحسن علي
ابن عبد الله بن أبي جرادة والشريف الزاهد سعيد بن عبد الله بن
محاسن الهاشمي وأبو الفرج عبد القاهر النحوي المعروف بالوأواء
وأبو المجد عبد الرحمن بن الخضر ، الحلبيون . وتوفي سنة ست وتسعين
وأربعائة . وقد أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن الحسن الدمشقي

بها عن أبي عبد الله محمد بن حمزة بن أبي الصقر ، قال :
أنشدني الشريف الزاهد سعيد بن عبد الله بن محاسن الهاشمي
أبو منصور بجلب ، قال :

أنشدني أبو عبد الله محمد الأصبهاني قال : أنشدني أبو العلاء
يعني يخاطبه :

يا أصبهاني وما غيره ماذا ترجى من دخول الـ
لامال عندي ترجى نفعه اذهب حميداً وتفضل على

٤٠ - وكتاب يعرف بلزوم مالا يلزم وهو في المنظوم ، بني
على حروف المعجم ، ويذكر فيه كل حرف سوى الألف بوجهه
الأربعة : وهي الضم والفتح والكسر والوقف منظوماً ، ومعنى
لزوم مالا يلزم أن القافية يردد فيها حرف لو غير لم يكن مخلاً بالنظم ،
ثم أورد عدة شواهد على ذلك . ومقدار هذا الكتاب أربعة
أجزاء ، مائة وعشرون كراسة .

٤١ - وكتاب يتعلق بهذا الكتاب يقال له « زجر الناجح »
وقد ألمنا إليه .

٤٢ - وكتاب يتعلق بلزوم مالا يلزم أيضاً سماه « نجر الزجر »
وقد ألمنا إليه أيضاً .

٤٣ - وكتاب يعرف براحة اللزوم ، شرح فيه مافى كتاب
« لزوم مالا يلزم » من الغريب ، ومقداره مائة كراسة .

وقد تضمنت هذه الكتب ردوداً صريحة من أبى العلاء على
خصومه الذين اتهموه بالكفر ، ولم يتورعوا عن تحريف كلامه .

٤٤ - وكتاب يعرف بجامع الأوزان فيه شعر منظوم على معنى
الغز ، يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل بجميع
ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب من ذلك . ثم أورد عدة أمثلة
على ذلك . يقول ابن العديم : إن مقدار هذا الكتاب ستون
كراسة وعدد أبياته نحو من تسعة آلاف .

٤٥ - كتاب « استغفر واستغفرى » فى العظة والزهد
والاستغفار ، أول كل أبيات فيه : استغفر الله ، ومقداره مائة
وعشرون كراسة ، يشتمل على نحو من عشرة آلاف بيت .

٤٦ - وكتاب « ملقى السبيل » وهو كتاب وعظ يشتمل على
نثر ونظم على حروف المعجم ، على كل قافية فصل نثر وأبيات شعر ،
مقداره كراستان .

٤٧ - وما عمله فى النحو والغريب ككتاب « الحقير النافع »

وهو مختصر فى النحو، مقداره خمس كرارىس .

٤٨ - وكتاب يتصل بالحقير النافع يعرف بالظل الطاهرى ؛ عمله

لرجل من أهل حلب يكنى أبا طاهر ؛ وهو أبو طاهر المسلم بن على ابن تغلب الملقب مؤتمن الدولة ، وكان من أكابر الحلبيين وعلمائهم ، وكان وجيهاً عند معز الدولة شمال بن صالح ، وسيره رسولا إلى مصر الى المستنصر سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، فأت بها وأودع تركته عند المؤيد فى الدين ليوصلها الى ورثته ، وهذا الذى غناه أبو محمد الخفاجى بقوله فى قصيدته الرائية :

إن فى جانب المقطم مهجو رأ ومن أجله تزار القبور
وبعد أن أورد مقطوعة من مرثاة ثانية لأبى محمد
الخفاجى قال :

وهذا الكتاب قريب من الأول فى الحجم ، وقد يخلط
بالكتاب الأول ويجعل كتابا واحدا .

٤٩ - وكتاب يعرف بالمختصر الفتى ، يتصل بمختصر محمد بن سعدان ، عمله لولد كاتبه أبى الفتى محمد ابن الشيخ أبى الحسن على بن أبى هاشم .

٥٠ - وكتاب يعرف بعون الجمل ، عمله لأبى الفتى محمد بن على

ابن أبي هاشم، شرح فيه شيئاً من كتاب الجمل لا أعلم مقدارهما .
وهو آخر كتاب أملاه وكان أبوه يتولى إثبات ما ألفه من هذه الكتب
فألزمه حقوقاً جمّة وأيادي بيضا فوضع هذين الكتابين لابنه .

٥١ - وكتاب يعرف بتعليق الخلدّس ، مما يتصل بكتاب
أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي المعروف بالجمل . لا أعلم
مقداره .

٥٢ - وكتاب يتعلق بهذا الكتاب أيضاً . يعرف باسعاف
الصديق . لا أعلم مقداره .

٥٣ - وكتاب يتعلق بالكافي الذي ألفه أبو جعفر أحمد بن
محمد النحاس ، لقبه : قاضي الحق ، لا أعلم مقداره .

٥٤ - وإملاء في النحو يتصل بالكتاب المعروف بالعضدي ،
لقبه : ظهير العضدي ، لا أعلم مقداره .

٥٥ - وكتاب شرح فيه كتاب سيبويه ، لم يتمه ، مقداره
خمسون كراسة .

٥٦ - وكتاب تفسير أمثلة سيبويه وغيرها ، عرّيت من الكتاب ،
لا أعلم مقداره وهو في مجلد .

٥٧ - وكتاب شرح فيه خطبة أدب الكاتب ، عمله لأبي الرضى

سالم بن الحسن بن علي الحلبي ، وهو ابن اخت الوزير أبي نصر محمد
ابن النحاس الحلبي ، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء ،
لا أعلم مقداره .

٥٨ - وكتاب في العروض ، يعرف بثقال النظم . لا أعرف

مقداره . وهو في مجلد

٥٩ - وكتاب في القوافي . مجلد

٦٠ - وكتاب الالامع العزيزي في تفسير شعر المتنبي . ويقال

الثابتي العزيزي . عمله للأمير عزيز الدولة أبي الدوام ثابت بن شمال
بن صالح بن مرداس بن إدريس بن نصر بن حميد الكلابي .

وبعض الناس يغلط ويقول إنه وضعه لعزير الدولة أبي شجاع فاتك
العزيزي . وليس الأمر كذلك . ومقداره مائة وعشرون كراسة .

٦١ - وكتاب في معاني شعر المتنبي . مقداره ست كراريس .

٦٢ - وكتاب يعرف بذكرى حبيب . في تفسير شعر أبي تمام

حبيب بن أوس الطائي . مقداره ستون كراسة .

٦٤ - وكتاب يتعلق بشعر أبي عبادة البحرى يعرف بعث

الوليد . وكان سبب وضعه أن بعض الرؤساء ، وهو أبو اليمين المسلم
ابن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني ، وكان صاحب

الديوان بحلب - أنفذ إليه نسخة من شعر أبي عبادة البحترى ليقابل له بها فأثبت ماجرى من الغلط ليعرض ذلك عليه . وبعض الغلط من الناسخ ، وبعضه من البحترى . ومقداره عشرون كراسة .

٦٤ - وكتاب يعرف بالرياشي المصطنعى . فى شرح مواضع من الحماسة الرياشية ، عمله لرجل من الأمراء يلقب مصطنع الدولة . وهو أبو غالب كليب بن على ، فسر فيه ما لم يفسره أبو رياش . وكان قد أنفذ إليه نسخة من الحماسة ، وسأله أن يخرج فى حواشيها ما لم يفسره أبو رياش . فجعله كتاباً مفرداً لخوفه من أن تضيق الحواشى عنه . مقداره أربعون كراسة .

٦٥ - وكتاب جمع فيه فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، لا أعلم مقداره .

٦٦ - وكتاب فيه أمالى من حديث رسول الله ﷺ عن شيوخه . وهى سبعة أجزاء . سبع كراريس .

٦٧ - ومن الأمالى التى لم تتم . ولم يفرد لها اسماً ، ما مقداره مائة كراسة ، منها : تفسير شواهد الجهمرة .

وجمع شعر أخيه أبى الهيثم عبد الواحد لولده زيد . وجمع شعر

الأمير أبي الفتح بن أبي حصينة السلمى . وشرح مواضع منه في
ثلاث مجلدات .

فذلك جميعه سبع وستون مصنفا .

انتهى ما ذكره ابن العديم من كتب أبي العلاء ، ويخيل
إلى أن القارئ قد مل من تلاوة هذا الثبت الطويل ، ولا أنكر ،
فقد مللت أنا أيضا في نقله ، ولكن أين هذا مما يجب أن يتحلى به
محبو العلم من الصبر والجلد ؟

لقد أمضى أبو العلاء خمسين سنة من عمره وهو يملئ هذا الحشد
من الرسائل والكتب في شتى صنوف العلم والأدب يعالج فيها
مشكلات الحياة والمجتمع . أفلا نتف لحظات قد لا تتجاوز الدقائق
الخمس في تلاوة عناوين هذه الثروة الضخمة التي تركها أبو العلاء
على ما فيها من فوائد لمن يريد أن يعرف كل شاردة عن حياة هذا
الفيلسوف العربي الفذ ؟

وعلى كل ، فنحن لم نورد هذا الثبت الطويل إلا لهذه
الاستطرادات التي أوردها ابن العديم عن الكثير من الكتب مما
لأنجده عند ياقوت ، وقد عرفنا من هذا الفصل أن المؤرخ كمال الدين

قد قرأ أكثر كتبه ، وأنه لم ينبر للدفاع عن أبي العلاء إلا بعد أن تحقق له مدى عمله وإيمانه وصحة معتقده ، وأن خصومه لم يرموه بسوء المعتقد إلا لحسد تأكل ناره صدورهم . وهذا الذي جعله يسئ الظن بالبشر ويتمنى لو أن الإنسان لم يوجد لتنجو البشرية من فساده وشروره وخسه طبعه ، فقال :

يا ليت آدم كان طلق أمهم أو كان حرماً عليه إظهار
ولدتهم في غير طهر عاركا فلذاك تفقد فيهم الأظهار

سفره إلى بغداد

بعد هذا الفصل الطويل الذي عقده عن مؤلفاته ، عقد فصلا ذكر فيه رحلته إلى بغداد وعودته إلى معرة النعمان ، وانقطاعه في منزله عن الناس وتسمية نفسه رهين الحبسين ، وهو فصل توسع فيه وقص بعض قصص طريقة من حياة أبي العلاء .

قال ابن العديم :

رحل إلى بغداد لطلب العلم ، والاستكثار منه ، والاطلاع على الكتب ببغداد، ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفد . وقد ذكر ذلك في قصيدته التي قرأها على شيخنا أبي علي الحسن بن عمرو الموصلى بحلب .
قال : أنشدنا الخطيب أبو الفضل عبد الله بن أحمد الموصلى
قال : أخبرنا الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي إجازة ، قال :
أنشدنا أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان لنفسه وكتبها من بغداد إلى أهله ، يريد بالمعرة :

أإخواننا بين الفرات وجلق يد الله لا خبرتكم بمحال
أنبئكم أتى على العهد سالم ووجهي لما يتنزل بسؤال
وأنى تيممت العراق لغيرما تيممه غيلان عند بلال

فأصبحت محسوداً بفضلٍ وحده على بعد أنصاري وقلة مالى
وغيلان هو ذو الرمة قصد بلال بن أبي بردة بن أبي موسى ،
يريد أنه لم يستجد أحداً .
وكان ترك والدته بمعرة النعمان ، ولما عاد إلى المعرة وجدها قد ماتت .

* * *

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي ، عن أبي جعفر محمد ابن
مؤيد بن حواري ، أخبرني جدي أبو القميظان قال :
ولزم - يعنى أبا العلاء - منزله عند منصرفه من بغداد ، منذ سنة
أربعمائة ، وسمى نفسه «رهن المحبسين» للزومه منزله وذهاب عينيه .

* * *

وقرأت بخط أبي محمد الحسن بن الفرج البحترى الأديب فى
آخر سقط الزند بروايته عن الخطيب التبريزى ، وخط التبريزى
عليه : ورحل - يعنى أبا العلاء - إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ،
ودخلها سنة تسع وتسعين ، وأقام بها سنة وستة أشهر ، ولزم منزله
عند منصرفه من بغداد منذ سنة أربعمائة . وسمى نفسه « رهن
المحبسين » لهذا ، ولذهاب عينيه .

* * *

أبانا أبو عبد الله محمد بن محمود النجار . قال كتب الينا الوزير أبو غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين ، قال : ورحل إلى بغداد في سنة ثمان وتسعين فدخلها في سنة تسع وتسعين وأقام بها سنة ونصفاً ، ثم عاد إلى المعرة في سنة أربعائة ولزم منزله بها ، وأمسك عن أكل اللحم خمساً وأربعين سنة .

* * *

سمعت والدى أبا الحسن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة فيما يأثره عن أسلافه قال : رحل أبو العلاء المعري من المعرة إلى بغداد واتفق يوم وصوله إليها موت الشريف الطاهر . يعنى أبا أحمد الحسين بن .. بن الخ وهو والد الشريفين الرضى والمرضى . فدخل أبو العلاء لتعزيتته ، والناس مجتمعون ، والمجلس غاص بأهله . فتخطى بعض الناس ، فقال له بعضهم ولم يعرفه : إلى أين يا كلب ؟ فقال : الكلب من لا يعرف للكلب كذا وكذا انمأً (١) .

ثم جلس في أخريات المجلس ، إلى أن قام الشعراء وأنشدوا .
فقام أبو العلاء وأنشد قصيدته الفأئية التي أولها :

(١) يورد ياقوت هذه القصة ثم يختم العبارة بهذا النص : قال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

أودى فليت الحادثات كفاف

مال المسيف وعنبر المستاف

يرثي بها الشريف المذكور . فلما سمعه الرضى والمرضى قاما إليه ، ورفعا مجلسه . وقالوا له : لعلك أبو العلاء المعرى . قال : نعم . فأكرماه واحترماه ، ثم إنه بعد ذلك طلب أن تعرض عليه الكتب التى فى خزائن بغداد فأدخل إليها . وجعل لا يقرأ عليه كتاب إلا حفظ جميع ما يقرأ عليه .

* * *

سیر إلى قاضى المعرة شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن مدرك ابن سليمان جزءاً فيه أخبار سلفه من بنى سليمان ، وكتبه لى بخطه قال : وهنا قص قصة طويلة عن تاريخ سفره ومن لقي فى بغداد من العلماء ثم أورد قصيدة من أخيه أبى الهيثم يستعطفه على مخالفته بالشام ويسأله العودة يقول فى مطلعها :

يارب قد جنح الوميض وغارا

فاسق المواطر زينباً ونوارا

أختين صاغها الشباب وعصره

ماء يصفقه النعيم ونارا

وهى طويلة يَختَمها بقوله :

أبأ العلاء نداء عبد أدركت

منه النوى لما نأت بك ثارا

حاشاك أن تبدى الجفاء خللة

وتعيد أقران الوفاء قصارا

أدرك بإدراك المعرة مهجة

تفنى عليك مخافة وحادارا

أغررت نواك بها الحمام مناجزا

ونجا بها حسن الرجاء مرارا

بلغت بك الممم المراد فأياست

منك الحسود ولم تنط بك عارا

فأقت في الزوراء ، ثم غدوت في

أفق المفاخر كوكبا سيارا

برد عزلة واستفال باللفة

قال ابن العديم :

ولما قدم من بغداد ، عزم على العزلة ، والاتقصاب من العالم
فكتب إلى أهل المعرة :

«بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب الى السكن المقيم بالمعرة ،
شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبدالله بن سليمان ، خص به من
عرفه وداناه ، سلم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعشها ولا آلمها . أما
الآن فهذه مناجاتي بعد منصرفي عن العراق : مجتمع أهل الجدل ،
وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فانهضت ، وودعت
الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره ، وجربت خيره وشره ،
فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة ، عزلة تجعلني من الناس كبارح
الأروى من سائح النعام . وما ألوت نصيحة لنفسي ، ولا قصرت
في اجتذاب المنفعة إلى حيزي ، فأجمعت على ذلك ، واستخرت الله
فيه بعد جلائه على نفر يوثق بحصائلهم ، فكلهم رآه حرما وعده إذا
تم رشدا . وهو أمر أسرى عليه بليل قضى بركة ، وخبث به النعام ،
ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ، ولكنه غدى الحقب

المتقدمة ، وسليل الفكر الطويل . وبادرت إعلامهم ذلك مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض الى المنزل الجارية عادتي بسكناه ، ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سمجين : سوء الأدب وسوء القطيعة ، ورب ملوم لا ذنب له ، والمثل السائر : «خل امرءاً وما اختار» وما سمحت القرون بالإياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة :

١ - نبذة كنبذة فتيق النجوم .

٢ - وانقضاباً من العالم كانهضاب القابضة من القوب .

٣ - وثباتا في البلد إن جلا أهله من خوف الروم .

فان أبي من يشفق على ، أو يظهر الشفق ، إلا النفرة مع الدواد كانت نفرة الأعفر أو الأدماء .

وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب . ولا أتكثر ببقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه . والجاهل مغالب القدر . فلهيت عما استأثر به الزمان . والله يجعلهم أحلاس الاوطان ، لا أحلاس الخيل والركاب ، ويسبغ عليهم النعمة سبوغ القمرء الطلقة على الظبي الغرير ، ويحسن جزاء البغداديين ، فقد وصفوني بما أستحقته ، وشهدوا لي

بالفضيلة على غير علم . و عرضوا على أمواهم عرض الجد ، فصادفوني
غير جنل بالصناعات ، ولاهش إلى معروف الأقسام ، ورحلت وهم
لرحيلي كارهون . وحسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون »

*
*
*

قال ابن العديم :

وإنما قيل له « رهن المحبين » للزومه منزله وكف بصره
فأقام مدة طويلة في منزله مخفياً لا يدخل عليه أحد . ثم إن الناس
تسبوا اليه حتى دخلوا عليه . فكتب الشيخ أبو صالح محمد بن المهذب
إلى أخيه أبي الهيثم قصيدة طويلة يدح فيها أبا العلاء وبذكر فضله
وما تركه من أثر في بغداد وفي قلوب محبيه . ومما قاله :

أبا الهيثم اسمع ما أقول فأنما تعين على مارمت خير معان
قريضي هجاء إن حرمت مديحه لأروع وضاح الجبين هجان
أطل على بغداد كالغيث جاءها به سعد نجم في أجل أوان
نضائها ثياب المجد وهي لباسها وبدلها من شدة بليان
فياطيب بغداد وقد أرجت به على بعدها الأطراف من أرجان
ومنها :

فكيف حاملا مني إليه رسالة تبين إليه في هضاب أبان

فان قال أخشى من فلان تشبهاً فقل ما فلان عندنا كفلان
وقائل هذا الشعر من أكابر رجالات المعرة كان كما يقول
المؤرخون : كبير القدر ، جليل الأمر ، فاضلاً علماً زاهداً شاعراً ،
حدث بالكثير عن أبي العلاء المعرى .

وهكذا فلا يترك ابن العديم فرصة تمر إلا ويورد لنا بطريق
غير مباشر ، بعض النصوص التي ترينا من هم الذين أحبوا أبا العلاء
من معاصريه . وكأنه يرد على خصومه بقوله :

أيتقدم إلى مدحه العلماء والزهاد ، إذا كان ينطوى قلبه على
الكفر والأيحاد ؟

ألا ساء ما تعتقدون . . . !

ذكاؤه وحفظه

بعد أن استوفى ابن العديم الكلام عن رحلة المعرى إلى بغداد وعودته إلى معرة النعمان وانقضاءه في منزله عن الناس ، عقد فصلا عن ذكائه وفطنته وسرعة حفظه وألمعيته وتوقد خاطره وبصيرته . ونحن نورد هذا الفصل على ما فيه من غرائب ، هي أقرب لأن ترضى أهواء العوام من أن ترضى أفهام الخواص . على أن هذا لا يجرد أبا العلاء من توقد الذهن وسرعة الفهم .

قال ابن العديم :

« أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي ، أخبرنا أبو حفص محمد بن مؤيد بن حوارى كتابة ، قال : أخبرني جدى أبو اليقظان قال : كان مولد الشيخ أبي العلاء بن سليمان بمعرة النعمان وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتى عشرة سنة رحمه الله . وقرأت بخط أبي محمد الحسن القاسم البحرى فى آخر سقط الزند ، وقد قرأه على التبريزى وعليه خطه ، وذكر أبا العلاء فقال : وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتى عشرة سنة .

وسمعت والدى يقول : فيما يؤثره عن أسلافه : كان أبو العلاء

على غاية من الذكاء والحفظ . وقيل له : بم بلغت هذه الرتبة في العلم ؟
فقال : ما سمعت شيئا إلا حفظته ، وما حفظت شيئا فنسيته . »

ثم روى ابن العديم أكثر من قصة واحدة مما ترويه كتب
الأدب عن توقة ذهنه وسرعة ذاكرته مما يدخل في باب التهويل
أكثر مما يقره العقل والمنطق ، كقصة تلهذه أبي زكريا التبريزي مع
مواطنه اللذين تحدثا بالفارسية ، فأعاد أبو العلاء الكلام دون أن يفهم
المعنى ، وقصة التاجر بن اللذين أضع أحدهما ورقة الحساب فاستطاع
أبو العلاء ، بعد عدة أيام ، أن يسرد هذه الأرقام دون زيادة أو نقص !
وقد روى ابن العديم هاتين القصتين وروى غيرها مماثلتين لهما ،
ولا بأس أن نسمع إليه يقص بعض القصص التي لم ترد في الكتب
التي عرضت إلى سيرة أبي العلاء .

قال ابن العديم :

وأخبرني قاضي معرفة النعمان شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن
مدرک بن سليمان فيما تأثره عن العربيين أن الشيخ أبا العلاء لما دخل
بغداد لم يعرض عليه شيء من الكتب إلا وحفظها ، وأخبرهم أنه

يحفظ كل شيء سمعه . وطلبوا كتاباً لا يعرفه ليمتحنوه به فأحضروا
دستور الخراج الذى فى الديوان ، وجعلوا يوردون ذلك عليه مياومة
وهو يسمع الى أن فرغو من ذلك ، فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم
كل ما أوردوه عليه .

« . »

وقفت على سيرة بعض الرؤساء بحلب ، وضعها الشريف أبو على
المظفر بن الفضل بن يحيى العلوى الإسحاقى الحسينى نزىل ببغداد ،
وهو من ولد الشريف أبى إبراهيم العلوى الحرانى وأصله من حلب
وكان أبوه حاجب الباب ببغداد، ورد هذا الشريف عايناً فى حلب -
زائراً أهله بها ، فذكر فيه ، قال : حدثنى والدى رضى الله عنه
وأرضاه ، يرفعه إلى ابن منقذ قال : كان بأنطاكية خزانة كتب ،
وكان الخازن بها رجلاً علويًا فحاست يوماً إليه . فقال . قد خبأت لك
خبئة ظريفة لم يسمع بثلمها فى تاريخ . ولا كتاب منسوخ . قلت :
وما هى ؟ قال ، صبي دون البلوغ ، ضير ، يتردد إلى وقد حفظته
فى أيام قلائل عدة كتب ، وذلك لأننى قرأت عليه الكراسة والكراستين
مرة واحدة فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ، ثم يتلو على ما قد سمعه كأنه قد
كان محفوظه ، قلت : لعله يكون يحفظ ذلك . قال : سبحان الله !

كل كتاب في الدنيا محفوظ له ، وإن كان ذلك كذلك فهو أعظم !
ثم حضر المشار اليه وهو صبي ، دميم الخلق ، مجذور الوجه ، على
عينيه بياض من أثر الجدرى ، كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا وهو يتوقد
ذكاء ، يتوده رجل طوال من الرجال ، أحسبه يقرب من نسبه ، فقال
له الخازن : يا ولدى هذا رجل شريف القدر ، وقد وضعتك عنه (١)
وهو يحب البوم أن تحفظ ما يختاره لك قتال : سمعاً وطاعة ، فليختر
ما يريد . قال ابن منقذ : فاخترت شيئاً ، وقرأته على الصبي ، وهو
يموج ويستزيد ، فاذا مر به شيء يحتاج إلى تقريره في خاطره يقول :
أعد هذا ، فأورده عليه مرة واحدة حتى انتهت إلى ما يزيد على
كراسة ، ثم قلت له : يقنع هذا من قبل نفسي . قال : أجل حرسك الله ،
قلت كذا وكذا ، وتلا على ما أمليته عليه وأنا أعارضه بالكتاب
حرفاً حرفاً حتى انتهى إلى حيث وقفت عليه ، فكاد عقلي يذهب
لما رأيت منه : وعلمت أن ليس في العالم من يقدر على ذلك ، إلا أن
يشاء الله ، وسألت : فقيل لى : هذا أبو العلاء التنوخى من بيت العلم
والقضاء والثروة والغناء .

* * *

(١) هكذا في الأصل ، ولعله : وصفتك له

وهذه القصة ترينا لو نأمن المملكات الواعية التي تحفظ النصوص الأدبية دون أن تعاد عليها مرة ومرة ، على أن ابن العديم ينتض هذه القصة من حيث مكانها وزمانها لا من حيث هيكلها ، فيقف مناقشاً بطبيعة المؤرخ المتزن الذي لا يريد أن ينقل أحداث التاريخ دون فهم ووعي ، فيعلق على هذه القصة بتوله :

« وهذه الحكاية فيها من الوهم ما لا يخفى ، وذلك أنه قال : كان بأنطاكية خزانة كتب إلى آخر ما ذكره ، وهذا شيء لا يصح ، فإن أنطاكية أخذها الروم من أيدي المسلمين في ذى الحجة من سنة ٣٥٨ هـ وولد أبو العلاء بعد ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر في ربيع الأول من ٣٦٣ هـ وبقيت أنطاكية في أيدي الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطلمش في سنة ٤٧٧ هـ وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك في سنة ٤٤٩ هـ وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا عليها ، فلا يتصور أن يكون بها خزانة كتب وخرن ، وتقصد الاستغفال بالعلم . ويحتمل عندي أن يكون هذا بكفر طاب ، فقد كانت كفر طاب مشحونة بأهل العلم ، وكان بها من يقرأ الأدب ويشغل به قبل أن يهجمها الفرنج سنة ٤٩٢ هـ وكانت لأبي المتوج مقلد بن نصر بن ممنقذ في أيام أبي العلاء ، فلعله تصحف كفر طاب بأنطاكية

وتصحيفها بها غير مستبعد . فإن كان كذلك فابن منقذ ، الحاكي
لهذه الحكاية ، هو أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ ، وأبوه نصر ،
وكفر طاب قريبة من معرة النعمان ، ويحتمل أن ذلك كان بحلب...
وله بها دار ومنزل ، وكان بها خزانة كتب في الشرفية التي بجامع
حلب في موضع خزانة الكتب اليوم ، واتفقت فتنة في بعض أيام
عاشوراء بين أهل السنة والشيعة ونهبت خزانة الكتب ، وكان ذلك
في زمن أبي العلاء ، ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل ، وجدد
الكتب فيها بعد ذلك الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك
رضوان ، ثم وقف غيره كتباً أخرى بها .

* * *

وقد دون ابن العديم في هذا الفصل كل ما قرأه وسمعه ، وما زال
يتمنقل من قصة إلى قصة ومن نادرة إلى أخرى ، إلى أن قال :
«أخبرنا قاضي المعرة شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن مدرك
ابن سليمان قال : سمعت جماعة من أهلنا يقولون : كان أبو العلاء
متوقفاً الخاطر ، على غاية من الذكاء من صغره ، وتحدث الناس عنه
بذلك وهو إذ ذاك صبي صغير يلعب مع الصبيان ، فكان الناس يأتون
إليه ليشاهدوا منه ذلك ، فخرج جماعة من أهل حلب إلى ناحية

معرفة النعمان وقصدوا أن يشاهدوا أبا العلاء وينظروا ما يحكى عنه من
الفتنة والذكاء ، فوصلوا إلى المعرة وسألوا عنه فقيل لهم : هو يلعب
مع الصبيان ، فجاؤوا إليه وسألهوا عليه فرد عليهم السلام ، فقيل له :
إن هؤلاء جماعة من أكابر حلب جاؤوا لينظروك ويمتحنوك ، فقال
لهم : هل لكم في المقابلة بالشعر ؟ فقالوا : نعم ، فجعل كل واحد منهم
يفشد بيتاً على قافيته ، حتى فرغ محفوظهم بأجمعهم وقهرهم .

فقال لهم : أعجزتم أن يعمل كل واحد منكم بيتاً عند الحاجة

إليه ، على القافية التي يريد ؟

فقالوا له : فافعل أنت ذلك .

قال : فجعل كما أنشده واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافيته

حتى قطعهم كلهم ، فعجبوا منه وانصرفوا ! . . .

* * *

وعن قاضى المعرة أيضاً قال : أخبرنى جماعة من سلفنا ، أن

بعض أمراء حلب قيل له : إن اللغة التي ينقلها أبو العلاء هى من

الجمهرة ، وعنده من الجمهرة نسخة ليس فى الدنيا مثلها ، وأشاروا

عليه بطلبها منه قصداً لأذاه ، فسير أمير حلب رسولا إلى أبى العلاء

يطلبها منه ، فأجابه بالسمع والطاعة ، وقال : تقيم عندنا أياماً حتى

تقضى شغلك . ثم أمر من يقرأ عليه الجهرة ، فقرئت عليه حتى فرغوا من قراءتها ، ثم دفعها إلى الرسول وقال له : ما قصدت بتعويبتك إلا أن أعيدها على خاطري خوفاً من أن يكون قد شذ منها شيء عن خاطري . فعاد الرسول وأخبر أمير حلب بذلك فقال : من يكون هذا حاله لا يجوز أن يؤخذ منه هذا الكتاب ! وأمر برده إليه .

* * *

ومع طول هذا الفصل فانه يتضمن أمالي أدبية طريفة لا بأس من نقل بعضها ، قال ابن العديم :

«وذكر القاضى الرشيد أبو الحسين أحمد بن على بن إبراهيم ابن الزبير المصرى فى كتاب جنان الجنان ، قال : حدثنى القاضى أبو عبد الله محمد بن سند القنصرى بمصر قال : حدثنى أبى قال : بقنا عند أبى العلاء المعرى فى الوقت الذى كان يملى فيه شعره المعروف : « لزوم مالا يلزم » فأملى فى ليلة واحدة ألفى بيت ، كان يسكت زمناً ثم يلى قريباً من خمسمائة بيت ، ثم يعود إلى الفكرة والعمل ، إلى أن كملت العدة المذكورة

وحكى أن أبا محمد الخفاجى الحلبي لما دخل على أبى العلاء سلم عليه ولم يكن يعرفه أبو العلاء ، فرد عليه السلام ، وقال : هذا رجل طوال ،

ثم سأله عن صناعته ، فقال : أقرأ القرآن ، فقال : اقرأ على شيئاً منه ،
فقرأ عليه عشرآ فقال له : أنت أبو محمد الخفاجي الحلبي ؟ فقال : نعم ،
فسئل عن ذلك فقال : أما طوله فعرفته بالسلام ، وأما كونه أبا محمد
فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب ، فأني سمعت بحديثه »

* * *

« سمعت والدي رحمه الله يقول : بلغني أن أبا العلاء بن سليمان كان
يعجبه قصيدة التهامي التي يرثي بها ولده وأولها :

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
قال : فكان لا يرد عليه أحد من أهل العلم إلا ويستنشده إياها
لا عجا به به بها ، فقدم التهامي معرة النعمان ، ودخل على أبي العلاء
فاستنشده إياها فقال له : أنت التهامي ؟

قال : نعم ، وكيف عرفنتي ؟

فقال : لأنني سمعتها منك ومن غيرك ، فأدركت من حالك أنك
تنشدها من قلب قريح ، فعلمت أنك قائلها .
هذا معنى ما ذكره لي والدي رحمه الله .

حرمة ومطامير

والفصول الأخيرة من كتابه الانصاف والتحرى، في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعرى - الفصول التي وصلتنا خصها ابن العديم بذكر حرمة عند الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء، وعن اضطلاعها بالعلم والأدب، ومعرفة بالغة ولسان العرب، ثم عقد فصلاً ذكر فيه كرم أبي العلاء وجوده، على قلة ماله ونزارة وجوده، واختتمت المخطوطة بفصل ذكر فيه قناعة نفسه وشرفها وعفتها عن أخذ صلوات الناس وظلفها. وقبل أن نلج إلى الفصول المفقودة من الكتاب وهي الفصول التي خصها بالدفاع عن أبي العلاء نمر مروراً سريعاً بهذه الفصول الأربعة التي عقدها ابن العديم لنكمل هذه السيرة بقلم قاضي القضاة، وهي قصة شائقة لما تميزت به حياة فيلسوف المعرفة وما مر بها من أحداث جديرة بترديدها وتلاوتها.

قال ابن العديم يصف حرمة أبي العلاء عند الملوك والخلفاء ومر كره السامق عند الأمراء والوزراء:

«وما زالت حرمة أبي العلاء في علاء، وبحر فضله مورداً للوزراء والأمراء. وما علمت أن وزيراً مذكوراً، وفاضلاً مشهوراً، مر بمحنة

النعمان: في ذلك العصر والزمان، إلا وقصده واستفاد منه، أو طلب شيئاً من تصنيفه أو كتب عنه. وسيأتي في أثناء فصول هذا التصنيف، ما يدل على علو مرتبته وقدره المنيف. وقد كان المستنصر المتولى على مصر أحد العبيدين الذين ادعوا الخلافة، بذل لأبي العلاء ما بيت المال، بعمرة النعمان من الحلال، فلم يقبل منه شيئاً. وسند ذكر ذلك في موضعه.

وكذلك داعى دعائهم بمصر أبو نصر هبة الله بن موسى المؤيد في الدين، حين بلغه أن الذي يدخل لأبي العلاء في السنة من ملكه نيف وعشرون ديناراً كتب إلى تاج الأمراء: ثال بن صالح، وكان إذ ذاك نائباً عن العبيدين بحلب وعمرة النعمان، بأن يجرى ما تدعو إليه حاجته بجميع مهامه وأسبابه، وما يحتاج إليه ما هو بلغة له من ألد الطعام، وأن يضاعف حرمة ويرفع منزلته عند الخاص والعام، فامتنع من قبول ذلك، وسند كرهه أيضاً في موضعه عند الحاجة إلى ذكره.

وكان الأمير عزيز الدولة أبو شجاع فاذك بن عبد الله أمير حلب يطلب منه أن يصنف له تصانيف، ويحترمه ويرفع رتبته، ويقبل شفاعته، وقدم إليه إلى معرفة النعمان. . . .

وكذلك أمير الجيوش أنوشتكين الذبرى أمير حلب ودمشق،
كان يثنى على أبي العلاء . . . »

ثم ذكر قصته مع أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب
وقبوله شفاعته في أهل معرة النعمان ، بعد أن كاد يبطش بهم سنة
٤١٧ هـ . ويروى ابن العديم هذه القصة على روايتين : إحداهما —
أن منكرًا ظهر بمعرة النعمان في زمن صالح بن مرداس ، فعمد شيوخ
البلد إلى إنكار ذلك المنكر ، فأفضى إلى أن قتلوا الضامن بها ، وأهرقوا
الحمر ، فجمعهم وإلى حلب واعتقلهم وكان فيهم بعض بنى سليمان ،
فجاء الجماعة إلى الشيخ أبي العلاء وقالوا له : إن الأمر قد عظم وليس
له غيرك ، فسار إلى حلب ليشفع فيهم . . . إلى آخر الرواية .

والثانية — ما ترويه كتب الأدب ؛ ورواية ابن العديم أوسع

وهذه هي :

« ذكر لي بهاء الدين أبو إسحق أنه سار إلى حلب ، وما
أظن أن أبا العلاء بعد رجوعه إلى معرة النعمان من بغداد خرج عن
المعرة ، ولهذا سمي نفسه رهن المحبس . وقد قرأت هذه الحكاية
في تاريخ سيره إلى بعض الهاشميين بحلب لأبي غالب همام بن الفضل
ابن جعفر بن المهذب قال : سنة سبع عشرة وأربعمائة ، فيها صاحت

امرأة في الجامع يوم الجمعة ، يعنى بمعرة النعمان ، وذكرت أن صاحب
الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، فنفركل من في الجامع إلا القاضي
والمشايخ . وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان أسد
الدولة صالح في نواحي صيدا ، ثم قال في هذا التاريخ : سنة ثمان
عشرة وأربعمائة - فيها وصل الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس
الى حلب وأمر باعتقال مشايخ المعرة وأمائها ، فاعتقل سبعون
رجلا في محبس الحصن سبعين يوماً ، وذلك بعد عيد الفطر بأيام ،
وكان أسد الدولة غير مؤثر لذلك ، وإنما غلب تاذرس على رأيه ،
وكان يوهمه أنه يقيم عليهم الهيبة ، ولقد بلغنا أنه خاطبه في ذلك فقال
له : أقتل المهذب وأبا المجد - يعنى أخا أبى العلاء - بسبب ماخور !
ما أفعل ، وقد بلغنى أنه دعا لهم في آمد وميا فارقين ، وقطع عليهم
ألف دينار ، واستدعى الشيخ أبا العلاء بن عبد الله بن سليمان رحمه
الله بظاهر معرة النعمان ، فلما حصل عنده في المجلس ، قال له أبو العلاء :
مولانا الأمير ، السيد الأجل ، أسد الدولة ، ومقدمها وناصحها
كالنهار الماتع ؛ اشتد هجيرته ، وطاب أبرداه وكالسيف القاطع لان
صفحه وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين .
فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ .

ولم يعلم الشيخ أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، وإلا كان قد
سأل فيه . ثم قال الشيخ أبو العلاء بعد ذلك شعراً :

تغيبت في منزلي برهة ستير العيوب قليل الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقل وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من اقوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

وقد ذكر بعض الرواة أن صالحاً قال له عندما أنشده هذا الشعر :
محن الذين تسمع مناسجع الحمام وأنت الذي نسمع منك زئير الأسد .
وهذا تاذرس المشار اليه في هذه الحكاية هو تاذرس بن
الحسن النصراني ، وكان وزير صالح بن مرداس وصاحب السيف
والقلم ، وكان متمكناً عنده ، وكان في نفسه من أهل المعرفة شيء
لأنهم قتلوا حماه الخورى ، وكان يؤذيتهم فتتبع قتلته ، وصلبهم
وقتلهم ، فلما أنزلوا عن الخشب ليصلى عليهم ويدفنوا قال الناس
حينئذ يكابدون النصرارى : قد رأينا عليهم طيوراً أيضاً ، وماهى
إلا الملائكة ، فبلغت هذه الكلمة تاذرس ، فنقمها على أهل المعرفة ،
واعتدها ذنباً لهم ، فلما اتفقت هذه الواقعة من نهب الماخور شدد
تاذرس عليهم لذلك . «

ثقافته الأدبية

أما الفصل الذي عقده عن اضطلاعہ بالعالم والأدب ، ومعرفةہ باللغة ولسان العرب ، فلا حاجة إلى إیراده ، وفيه يقص ابن العديم مكانة أبي العلاء في فنون الأدب مما نکتفی بالإلماع إليه .

كرمه وصوره

وقد أعقب هذا الفصل بفصل عن كرمه وجوده ، على قلة ماله ونزارة موجوده ، فذكر عدة قصص حسبنا منها هذه القصة الطريفة مع تلميذه الخطيب التبريزي ، قال ابن العديم :

وأخبرني القاضي شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن مدرك ابن سليمان ، يآثره عن المعريين ، أن الخطيب أبا زكريا التبريزي قدم على الشيخ أبي العلاء وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وأعطاه الخطيب صرة فيها ذهب وقال له : أوتر من الشيخ أن يدفعها إلى بعض من يراه لبشتری لی بها خبزاً ولحماً وما تدعو حاجتي إليه ، ويجري ذلك على في كل يوم لأتناوله مدة مقامي عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على

الاشتغال ، ويتفرغ بالى للاستفادة ، ويترفه خاطرى ، ولا يكون لى شغل غير ما أنا بصدده .

فأخذ الشيخ أبو العلاء الصرة منه ووضعها عنده وتقدم إلى وكيله وأجرى للخطيب ما تدعو إليه حاجته ، فتناول ذلك مدة مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أنه من ذهبه الذى دفعه إلى الشيخ . فلما أراد الانصراف ودع الشيخ أبا العلاء فدفع إليه صرته بعينها ، فقال الخطيب للشيخ : ما ظننت أنك تفعل هذا ولا أردت التثقل عليك بغير الاستفادة من علمك ، وعرض له بأخذه ، فقال الشيخ : قد كان ذلك ولا سبيل إلى رد هذه الصرة على ، وهذا ذهبك بعينه . فأخذ الخطيب وانصرف رحمها الله تعالى . وكان الخطيب فقيراً محتاجاً .

* * *

والفصل الأخير من المخطوطة عن قناعة نفسه وشرفها ، وعفتها عن أخذصلات الناس وظلفها ، وقد سرد فيه قصصاً طريفة تصور علو نفسه وعزوفه عن زخارف الدنيا مما لا حاجة إلى إيراده بعد الذى قدمناه . وبه ، أى بهذا الفصل ، ينتهى ما وجد من الكتاب فى خزنة السرى الحلبى .

ونفهم من عدة نصوص أن المخطوطة ناقصة ، ففي أكثر من فصل واحد يذكر ابن العديم المؤرخ أنه سيستوفى الكلام عن هذه الناحية في موضعه ، ونحاول أن نبحث عن هذا الذى أشار إليه فلا نجد ، وبدهى وقد كتب كتابه هذا للدفاع عن أبي العلاء وإنصافه ودفع الظلم عنه - بدهى بعد أن يستوفى الكلام عن حياته وما رافق هذه الحياة من أحداث ، أن يعرض إلى الموضوع الذى ألف الكتاب من أجله .

نعم ، لقد عرض ابن العديم إلى كل ناحية من نواحي حياته فكتب عنها بإسهاب ، فلهذا وصل إلى لب الموضوع - إلى ناحية الدفاع عنه وتبرئته مما وصمه به خصومه - لم نر شيئا .

لا شك أن ابن العديم ، وهو مؤلف خصب الإنتاج ، واسع الاطلاع ، كتب أكثر من كتاب واحد في عدة موضوعات ، وكتب تاريخ حلب فى أربعين مجلدا - لن يقف من كتابته عن أبي العلاء عند الحد الذى أشرنا إليه ، بل كتب مئات الصفحات وغاص إلى أعماق فلسفته ، وبسط هذه القضايا التى كانت تشغل معاصريه ، وعرض إلى أقواله فى الزمان والمكان ، فى البعث والنشور ، فى الرسل والديانات ، فى المخلوق والخالق ، فرد على متهميه ودفع الظلم عنه ،

وأنصفه بعد البحث والتحقيق ، كل الإي نصاب .

* * *

لقد كان المعري في طليعة مفكرى العرب ، وكفيلسوف متشائم
حر أطلق رأيه بجرأة في الكثير من قضايا الفكر والنفس والروح ،
في حقائق الكون ، في طوايا البشر ، وقد فسر رأيه تفسيرات ملتوية
أثارت عليه حفيظة الكثيرين من معاصريه الذين عقدوا فصولا
طويلة عن سوء معتقده .

وهذا ياقوت يجمع لنا في الفصل الذى عقده عن أبى الملاء ،
طائفة من أقوال معاصريه ومن إليهم ممن جاء بعدهم من الكتاب
والمؤرخين ، وفيه نرى اتهاماتهم الصريحة في عقيدة فيلسوفنا الشاعر :
حسينا أن نقف وقفة قصيرة عند هذه الصفحات :

قال ياقوت : (١)

« ومن شعره الدال على سوء عقيدته من « لزوم مالا يلزم » (٢) :

فقد طال العناء فكم تبانى سطوراً عاد كاتبها بطمس
دعاموسى وزال ، وقام عيسى وجاء محمد بصلاة خمس

(١) معجم الادباء ج ٣ ص ١٦٣ طبعة مصر

(٢) اكتفينا ببعض المقاطع دون جميع ما أثبت ياقوت

وقيل يجيء دين غير هذا فأودى الناس بين غد وأمس
إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همسي
ومن ذلك أيضا :

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه بنتيه لآبنيه في الخنا
علمنا بأن الخلق من أصل زنية وأن جميع الناس من عنصر الزنا
ومن أشعاره الدالة على سوء اعتقاده :

وهيئات البرية في ضلال وقد نظر اللبيب لما اعترأها
تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من افترأها
فقال رجاله وحى أتاه وقال الناظرون بل اقترأها
وما حجبني إلى أحجار بيت؟ كؤوس الخمر تشرب في ذراها
إذا رجع الخليم إلى حباه تهاون بالمذاهب وازدراها
وله أيضا :

خذ المرأة واستخبر نجوما تمر بطعم الأري^(١) المشور^(٢)
تدل على الممات بلا ارتياب ولكن لاتدل على النشور^(٣)

(١) الأري : العسل (٢) أى المجتق قول : اشتاد العسل : جناه

(٣) البعث والخروج من القبور

ومنها أيضا :

هفت الخيفة (١) والنصارى ما اهدوا

ويهود حارت والمجوس مضللة

اثنتان أهل الأرض : ذو عقل بلا

دين ، وآخر دين لا عقل له

ومنها أيضا :

إن الشرائع ألفت بيتنا إحنا (٢)

وأورثتنا أفانين العداوات

وما أبيضت نساء الروم عن عرض

للغرب إلا بأحكام النبوات

ومنها أيضاً :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة

وحق لسكان البسيطة أن يكوا

(١) دين الاسلام

(٢) جمع إحنة ، العداوة

تخطئنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك
ومما يدل على كفره تصريحاً قوله :

عقول تستخف بها مطور ولا يدرى الفتى لمن الثبور (١)
كتاب محمد وكتاب موسى وإنجيل ابن مريم والزبور
ومن ذلك أيضاً :

فاحكم إلهى بين ذاك ويني
أنهيت عن قتل النفوس تعمداً
وبعثت أنت لقتلها ملكين؟
وزعمت أن لها معاداً ثانياً
ما كان أغناها عن الحاليين
ومن ذلك أيضاً :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل
فلا ذنب يارب السماء على امرئ
وترزق مجنوناً، وترزق أحقاً
ومن ذلك أيضاً قوله :

رأى منك ما لا يشتهي فتزندقاً
صدمت : هكذا نقول
ولا مكان ألا فقولوا
زعمتموه بلا زمان
معناه ليست لنا عقول
هذا كلام له خبيء

ومن ذلك أيضاً قوله :

دين وكفر وأبناء تقال ، وفر

قان ينص ، وتوراة وإنجيل

فى كل جيل أباطيل ملفقة

فهل تفرد يوماً بالهدى جيل ؟

ومن ذلك أيضاً قوله :

ولا تحسب مقال الرسل حقاً

ولكن قول زور سطره

وكان الناس فى عيش رغيد

فجاؤوا بالمحال^(١) فكدره

قال المؤلف : نقلت هذا كله من تاريخ غرس النعمة محمد بن

هلال بن المحسن الصابىء ، وحمدت الله تعالى على ما ألهم من صحة

الدين وصلاح اليقين واستعدت به من استيلاء الشيطان على العقول .

قرأت فى كتاب «فلك المعانى» أن كثيراً من الجهال يعدّ

الموت ظلاماً من البارى عز وجل ، ويستقبحه بما فيه من النعمة

والحكمة ، والراحة والمصلحة . وقد قال أبو العلاء مع تحذلقه ودعواه

الطويلة العريضة وشهرة نفسه بالحكمة ومظاهرتة :
ونهيته عن قتل النفوس تعمداً وبعثت أنت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معادا ثانيا ما كان أغناها عن الخالين !
وهذا كلام مجنون معتوه ، يعتقد أن القتل كالموت ، والموت
كالقتل ، فليت هذا الجاهل لما حرم الشرع وبرده ، والحق وحلاوته ،
والهدى ونوره ، واليقين وراحته ، لم يدع ما هو برىء منه بعيد
عنه ، ولم يتل :

غدوت مريض العقل والرأى فالقنى لتعلم أبناء العقول الصحائح «

وقف عند هذا الحد مما نقله ياقوت ، لتساءل : ما رأى
ابن العديم في أقوال أبي العلاء وفي أقوال خصومه ؟
لاشك أن ابن العديم وهو صديق ياقوت ، قد اطلع على الفصل
الذى عقده عن أبي العلاء ، ولا شك أنه رد عليه ردا مفعجا . .
فأين القسم الباقي من الكتاب ؟

من المؤلم جدا ألا يظفرنا الدهر بهذا القسم من رسالة قاضى
قضاة حلب ! فلرأيه قيمته ، وقد عرفنا هذا الرأى من عنوان الكتاب
وعرفناه صريحا من المقدمة التى حمل فيها حملة شعواء على خصوما

الذين جعلوا «محاسنه عيوباً ، وحسناته ذنوباً ، وعقله حمقاً ، وزهده فسقاً ، فرشقوه بأليم السهام ، وأخرجوه عن الدين والإسلام ، وحرّفوا كلامه عن مواضعه ، وأوقعوه في غير مواقعه»

وهذا الذي دفع ابن العديم ، بعد أن قرأ أكثر مصنفات أبي العلاء أن يكتب رسالته هذه يدفع عنه هذه التهم التي اختلقها خصومه والذين حكوا بكفره بالأسانيد ، وشددوا في ذلك غاية التشديد ، وكفره من جاء بعدهم بالتقليد .

يقول ابن العديم تعقيباً على هذه الفقرات في مقدمته :

«فابتدرت دونه مناظلاً ، وانتصبت عنه مجادلاً ، وانتدبت لمحاسنه ناقلاً ، وذكّرت في هذا الكتاب مولده ونسبه وتحصيله العلم ، وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصدّه»
وإذا كنا وقفنا من الكتاب على الفصول التي عقدها عن مولده ونسبه وتحصيله للعلم . . . و . . . فأين الفصول التي عقدها عن دينه الصحيح ، ومذهبه ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصدّه . أين هذه الفصول ؟ ...

من المؤلم ألا يظفرنا الدهر أو خصوم أبي العلاء بهذا الذي

كتبه ابن العديم !!

ولكن أما وقد عرفنا رأيه الصريح من المقدمة، ومما جاء في بعض

فصول الكتاب وهو يقص سيرة حياته - فإننا نقدر قيمة ما كتبه

الشيخ كمال الدين ، قاضى قضاة حلب الذى لم يضطلع بهذه المهمة

الخطيرة إلا بعد وثوقه من القضية التى نصب نفسه للدفاع عنها ،

كالحامى النزيه الذى لا يقحم نفسه بالدفاع عن قضية ما إلا بعد أن

يسنوثق من أحقية القضية وعدالتها .

نعم ، ولعل الزمن يظفرنا ، فى يوم ما بنسخة كاملة من هذه

المخطوطة ، فيباح لنا نشرها كاملة كوثيقة من وثائق الدفاع عن حرية

الفكر فى العصر المابغى كتبها المؤرخ المحقق كمال الدين

ابن العديم - هذا القاضى ، الوزير السفير الذى لعب أكبر دور

فى تاريخ حلب السياسى ، وتاريخ العلاقات بين مصر والبلاد العربية ،

وكان حظه من الأدب والتاريخ والجهاد القومى والفكرى ما يضعه

فى طليعة مفكرى العرب ورجالها البارزين .

من نصوص المعاصرين
في عقيدة رهبان الحبس

أكثر الذين ينتصرون لأبي العلاء يثبتون أنه رجل مسلم سنيّ ، وأما ما في كلامه مما يشير إلى خلاف ذلك فكذب ، أو موهم يجب تأوله والتأمل فيه . والذين يثبتون له الشك لا يريدون بذلك تقرير حقيقة علمية في فلسفة الرجل ، وإنما عجزوا عن إثبات إسلامه ، وضنوا به على الإلحاد ، فوقفوه موقف الشك الذي يرجى أن يغفره الله ويعفو عنه . والواقع أن أبا العلاء لم يتخذ لنظره الفلسفي مذهب أهل السنة ، ولا مذهب السوفسطائية وأصحاب الشك ، ولا مذهب المعتزلة أيضاً .

ذلك أنه لا يؤمن إلا للعقل وحده ، يخالف بهذا أهل السنة لأنهم يقدمون الشرع على العقل ، وإن آمنوا به . وخالف مذهب المعتزلة لأنهم على تقديمهم للعقل يتخذون الشرع لنظرهم أصلاً ودليلاً يعتزون به ويلجأون إليه . وخالف مذهب السوفسطائية ، لأنهم يهتمون العقل فلا يؤمنون له ، ولا يعتمدون عليه . وإذا فهو يرى رأى الفلاسفة النظريين ، من اليونان ، والمسلمين ، في الاعتماد على العقل خاصة .

أبو العلاء كان منكراً للنبوات ، جاحداً لصحتها ، وقد نص على ذلك في اللزوميات صراحة غير مرة ، فطوراً يثبت أنها زور ، وطوراً يجعلها مصدر الشرور ، وافتن في ذلك افتناناً عجيباً ، فلم يكتف بانكار النبوات ، حتى أنكر الديانات عامة . وزعم أنها للعقل مخالفة ، وعن شرعته صادقة ، يسلك في ذلك مسلك التورية مرة ، والتصريح مرة أخرى . . . طه حسين

(٢)

لقد لقي أبو العلاء من الذين تصدهم ظواهر الألفاظ دون بواطنها ، ما يلقاه كل مفكر خالص من أغلال التقليد ، فاتهمه من لا يفهمه بالإلحاد والزندقة . وقولوه ما لم يقله من الشعر المزرى بالأديان ، الحاط من كرامة مؤسسها ، وتصدى كثير من أئمة المتأدين لتبرئته مما نسب إليه ، فكان من أثر ذلك أن تكون حول اسمه جو غريب حمل الكثيرين من أهل الورع على كراهية شعره ، حتى إن مصحح المطبعة الأميرية تخرج منذ أربعين سنة من تصحيح لزوميات أبي العلاء ، وكان ناشرها يطبعها هناك . فجاءت كثيرة الأخطاء من جراء ذلك .

لم تكن لأبي العلاء المعرى فاسفة معينة ، ولا مذهب مقرر ،
فان كان لابد من وضع اسم على الحالة التي كانت عليها نفسيته ،
فهي الحيرة والتشاؤم المزوج بالتهكم ، أشبه الناس به من معاصرنا
كان السيد جميل صدقى الزهاوى الشاعر البغدادى رحمة الله عليه ،
فقد كان حائراً متناقضاً متشائماً متهكماً ، فيينا كان يقول :

قال مادينك الذى كنت فى الد: يا عليه وأنت شيخ كبير
قلت كان الإسلام دينى وه ودين بالاحترام جدير
قال من ذا الذى عبت فقلت ال له ربي وهو السميع البصير
إذا به يقول :

لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقت نفسك فى مقام معبل
أثبت رباً تبتغى حلاً به للمشكلات فكان أكبر مشكل
ويقول :

أنا ما كفرت كل عم رى بالكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنع ت للنبي المرسل
فهذه الحالة من التناقض والحيرة التي كان عليها الزهاوى ، وكان
عليها قبله شيخ المعرة ، لا تصح أن تكون مذهباً ولا مستمدة من مذهب .

(٣)

وقد نقل المعرى الشعر العربى فى عصره نقلة واسعة المدى :
حمل الشعر من المعانى الفلسفية العميقة ومن الآراء النظرية المتباينة
ما لم يسبقه اليه غيره من شعراء العرب الإماما ، وقد اتهم لذلك بالزندقة
آنأ ، وبالإلحاد آخر ، على حين اعتبره قوم على رأس أشد المؤمنين
غلوآ فى إيمانهم . ولاعجب فى هذا ولا فى ذاك ، فتقليب الأفكار
وعرضها على الناس ، مطبوعة بطابع من يعرضها ، منكرة فى كثير
من الأحايين ما وجد الناس عليه آباءهم ، قد كان فى عصور كثيرة
وفى بلاد مختلفة ، موضع الريبة والظن ، بل موضع الاتهام والتجنى .
ذلك أمر لم تنفرد به البلاد العربية ولا البلاد الإسلامية ، بل جرى
حكمه على الأمم كلها فى الأزمان المختلفة ، وكان فى بعض الأمم
سبباً فى تعديل أصحاب رأى لرأيهم ، مما نجا منه العرب والمسلمون ،
فلم يتورطوا فيه كما تورط أهل أوروبا فى القرون الوسطى .

محمد حسين هبكل

(٤)

لو أن المعرى كان كاهناً هندياً برهمنياً متريضاً لما عجبنا للأمر
- أمر تحريم اللحوم - لأنه إنما يخضع لسلطان عقيدة دينية ويخشى
عقاب قدرة إلهية. أما وهو رجل قد شك في الديانات وهزأ بشعائرها
وفرائضها فمن العجيب حقاً ألا يكون له باعث على ترك اللحم
أربعين سنة إلا الإيمان بذهب البراهمة .

العزاز

(٥)

لم يصل إلينا من آثار أبي العلاء العلمية والأدبية إلا قل من
كثير ، والذي وصل إلينا مغمور بالشعور الديني ، طافح بالأدلة على
إيمان أبي العلاء وصحة عقيدته ، ومن هذه الآثار ما زعم قوم أنه
عارض به القرآن واتخذوا ذلك وسيلة للظن في دينه . فلما طبع بعضه
تبين أن ليس فيه شيء من المعارضة ، وإنما هو تمجيد لله .

وأعظم كتاب فيه ما يتمسك ال اعنون به هو «لزوم ما لا يلزم»
فإن فيه آياتاً تتعلق بالنبوات لا يمكن تأويلها على وجه قوى ، وهي

قليلة جداً ، فان كانت مما أدخله عليه تلاميذه وحساده ، وهو أقرب إلى حالة أبي العلاء ، فلا يؤاخذ بها ، وقد افتري عليه في حياته واستدعاه أمير حلب من أجل أبيات حرفها أعداؤه ، فأبان تحريفهم وافتراءهم بنسخ كانت في حلب لم تصل إليها أيدي المفترين ، فلما تبين الأمير صحة ما قاله رده إلى بلده مكرماً .

* * *

وفي السقط والفصول وملق السبيل وغيرها ما لا يعد من الشواهد الصريحة الواضحة . ومنهم من يقتضب جملة من قوله في رسالة ، أو بيتاً من شعره في قصيدة ، فيزعم أن أبا العلاء أراد به معارضة القرآن . والمنصف يرى أثر التعنت والافتراء جلياً في هذه المزاعم .

حسبنا أن نعلم أن العلاء أسرفوا في تكفير أبي العلاء . واعتمدوا في ذلك على شبه وأوهام ، وأنهم جعلوا دينه نهياً مقسماً بين الأديان ، فجعلوه زنديقاً وملحداً ومزدكياً وبرهيمياً وقرمطياً ودهرياً ، ولا يستبعد أن يأتي يوم يجعل فيه أبو العلاء متديناً بكل دين كان ، معتصماً بكل نحلة تكون ، معتقداً لكل مذهب سيكون .

سليم الجندى
عضو المجمع العلمى للعربى

تتبع ما وصل إلى يدي من شعر أبي العلاء ونثره ، فرأيت
الرجل مؤمناً بالله إيماناً صادقاً راسخاً يصفه بجميع صفات الكمال ،
وينزهه عن جميع صفات النقص ، أما الايمان والنبوات واليوم
الآخر وما إلى ذلك فيمكنك أن تجمع من شعر أبي العلاء ونثره
مجموعاً يصلح أن يكون مرجعاً للمتقين ، والزهاد المخلصين . ومن
الجهة الأخرى يمكنك أن تلتقط تفتاً منتشرة في ثنايا منظومه
ومشوره تعين عن تردده وشكوكه ، وهذا مادعا الكثيرين من
الأولين إلى القول بأنه من أهل الشك . غلى أنه لا يعسر على اللبيب
تأويل الكثير من تلك الأقاويل ، وإعادتها إلى نصاب الصواب .

لقيني شاب بالأمس ، فسألني : أبو العلاء مؤمن أم كافر ؟
فقلت له على الفور :

أتريد أن تجعله إماماً في مسجد ؟ انتقل الرجل إلى جوار ربه ،
وهو أعلم بدخيلة أمره ، وجلية سره . فما شأنى وشأنك في هذا ؟

له الراوى
عضو مجمع العلم العربى

(٧)

لأبي العلاء فلسفته إلهية ، وهي جانب كبير من فلسفته ،
والدين من أهم المسائل التي شغلت لبه طول حياته ، وهو شاك
رافض لمعظم ما كان يدين به معاصروه من عقائد ، متعجب لما يرى
من خلاف بين أتباع اليهودية والمسيحية والاسلام ، وليس ينفرد
أبو العلاء بالشك والزيغ بين أدباء العربية ، ولكنه يمتاز عن
سواه في هذا الأمر امتيازاً عنه في سواه ، فان المتردقين من أمثال
بشار وحماد وأبي نواس كانوا قوماً مستهترين متهاكين على اللذات
لا يكرههم أمر الدين إلا ريثما يتهاكون بالمؤمنين ويتحدّون عقائدهم .
أما أبو العلاء فكان زاهداً لا مستهتراً ، محرماً على نفسه متع
الدنيا لا متهافتاً عليها . وما انتهى إلى الشك اعتباطاً ولا استهتاراً
ولا لسوء صحبة أو ضعة بيئة أفسدت خلقه ومعتقده ، وهو النائي
في بيت التقى والفضل ، وإنما انتهى فكره الناصب إلى الشك بعد
طول التأمل والنظر وبعد شديد العناء والجهد ، وبعد أن حاول أن
يصل إلى اليقين ، ويقتنع بما يقتنع به غيره دون طويل بحث ولا
تساؤل . ولم يطلب اليقين من جهينة كما قال فلم تجربه جهينة سوى
الظن ، ولو ارتاحت نفسه إلى الإيمان عن اقتناع لكان أول
المؤمنين وأحسنهم تميدة .
فخرى أبو السعود

(٨)

فالمعري ، على ما أعتقد استنباطاً من أشعاره وأقواله ، زاهد غاية في الزهد ، عابد منقطع في عبادته ، متقلل يأخذ نفسه بالخشونة قانع باليسير ، معرض عن الدنيا وزخرفها ، وهذا مما يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن « نباتيته » ناشئة عن شفقتة وزهده وتقصفه لا عن زندقته وإلحاده .

أما ماورد في أشعاره مما يصحح أن يؤخذ عليه فلا يبعد أن يكون مدسوساً عليه للنيل منه ، فقد جاء عنه : « أنه كان يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملاحدة قصداً لهلاكه وإيثاراً لا تلاف نفسه »
ومما يدل على ذلك قوله :

حاول إهواني قوم فما واجهتهم إلا بإهوان
ينخرشوني بسعائياتهم فغيروا نية إخواني
لو استطاعوا المشوا بي إلى المريخ في الشهب وكيوان
الدكتور محمد عبد الحميد

الاضطراب السياسى
فى عصر ابحس العلاء
وانزه فى بيئته وشعره

البحث الذى ألقاه المؤلف فى المهرجان الالى
لابى العلاء المعرى بدعوة من المجمع العلمى العربى

عاش شاعرنا الفيلسوف في فترات الانهيار السياسي - في تلك
الفترات السود التي تصدعت فيها السيادة العربية على مذبح الشهوات
التي كانت تضطرم في صدور المتغلبين من الديلم ومن إليهم من
الأعاجم المتسلطين .

نعم ، عاش شاعرنا في نهاية هذه الفترات والبلاد العربية
تعصف بها الزعازع وتهزها الأعاصير . فكان الحكم في بغداد غيره
في مصر ، وفي بلاد الشام غيره في القطرين المتنازعين . وهو في
أقصى المغرب ، في الأندلس وفي شمال إفريقية ، غيره في الأقطار
العربية الثلاثة - كل شيء قد تعرض للتفكك والتفكك ، ففسدت
الحياة السياسية وفسدت الحياة الاجتماعية حتى أصبحت الدنيا
العربية وكأنها على بركان .. دول مختلفات المنازع والأهداف قد
انتشرت في الرقعة الإسلامية الكبرى ، نزعات فردية في إهاب من
من المطامع الصارخة تجيش في كل صدر ، جمعيات سرية تستهدف
غايات مريبة ، مذاهب جديدة هدامة ترمى إلى نزعات سياسية خطيرة .
كل شيء قد فسد واضطرب ، وأبو العلاء ينظر إلى هذه التيارات
الجارفة نظرة الفيلسوف الإنساني المتألم وقد أشفق - وهو الحكيم
البعيد النظر - أن تنهار هذه الأمبراطورية الكبرى في الفترة التي

وصلت فيها الحياة العقلية الى الذروة ، وأن يكون لبيئته النصيب الأوفر من مأساة هذا الانهيار ..

ولعل من أدق الأمور التي تستدعي انتباه الباحثين أن تجرى أحداث الحياة منذ فجر التاريخ الاسلامي في الأقطار العربية الثلاثة مصر أو الشام والعراق - على غرار واحد من الإيحاء أو التهديم، من النظام والفوضى ، فما يجري اليوم مثلا من تجاوب بليغ للنهوض والتحرر وللتطور والتماصك كان يجري بالأمس ، في تلك الفترة ، وفي نفس هذه الأقطار بالضد ، من تنافس وتناحر ، من تنازع وتخاذل ، وثورات وفتن ، أدت إلى انهيار سحيق ذاق العرب مرارته طويلا عبر القرون .

هذا التنازع الذي كان طابع الحكومات الإسلامية في عصر أبي العلاء هو الذي قضى على ما كان للخلافة من السلطان السياسي . ذلك السلطان الذي تجاذبته مصر وبغداد مدة غير قصيرة .

كانت بغداد خاضعة للديلم أو للأسرة البويهية التي حكمت العراق وفارس حكما أو توقراطيا فيه هذا التكالب على السلطة والمال وهذا التزاحم على المجد والسلطان ، وهذا الصراع الدامي بين أبناء العمومة وحتى بين الأخ وأخيه . وإذا كان للخلافة هذا السلطان

المدوّى فى الرقعة الإِسلامية الكبرى ، وكانت النفوس تتطلع إلى
بريق سلطانها كقوة من القوى الروحية والزمنية معاً ، كان من
البداهة بمكان ، وقد تقلص ظلها فى بغداد ، أن يطمح إليها
الفاطميون بعد أن ملكوا مصر .

وللفاطميين هذه الدعوى التى تربطهم بآل البيت . فقد ادعوا
هذه الوشائج القوية بين نسبهم ونسب فاطمة بنت الرسول ، وبرغم
ماقامت به بغداد من الاحتجاج الصارخ على هذه الدعوى الباطلة ،
وما تبع ذلك من احتجاج بعض المنتسبين إلى آل البيت فى القاهرة
ففسها وطلبهم الحجة الساطعة على هذا البرهان ، فقد أثبتوا هذه
الدعوى بقوة السيف وبريق الذهب . وكلمة المعز لدين الله يذكرها
كل من قرأ تاريخ الفواطم : أتريدون البرهان على نسبي؟ ها كم فاقراؤه !

سل نصف سيفه من غمده ، وقال لهم : هذا نسبي !

ونثر عليهم ذهباً كثيراً ، وقال : هذا حسبي ! . .

ماذا كان موقف المعارضين من هذين البرهانيين الفاطميين ؟

كان جواب الجميع : السمع والطاعة !

وانتهت ذيول هذه الحركة عند هذا الحد ، وأصبحت الخلافة

فى مصر أقوى منها فى بغداد ، وأخذت الدعوة العباسية تنكسر فى

حدود ضيقة بعد أن أصبح الخليفة الشرعى فى بغداد ، العوبة فى
أيدى الأمراء البويهيين المتسلطين . .

والشام - وأريد بيثة المعرى - ماذا كان شأنها فى جون
هذه الأحداث ؟

كانت مسرحاً لفتن وحروب متعاقبة لعل أقربها الى عهده
تلك الحروب والغزوات التى أنارها الأمير سيف الدولة توطيداً
للكيان العربى وصونا لثغور الشام من الغزو البيزنطى . . .

وإذا كانت الأيام لم تسعد المعرى أن يرى المجد الشامخ الذى
شاده الأمير الحمدانى فى السياسة القومية والحياة العقلية ، فقد شاهد ،
وهذا مازاد فى محنته ، لو نأ من ضعف السياسة وفساد الرأى فى ابنه
سعد الدولة ، وفى حفيده أبى الفضائل . وإذا تركنا الكلام عن
ابن سيف الدولة لأن ملكه لم يطل ولم يتميز بالأحداث الخطيرة ،
فترجو أن يطول حديثنا قليلاً عن حفيده أبى الفضائل ، فقد انتهى حكم
الدولة الحمدانية والدنيا العربية على ما وصفنا ، ولم يكن أبى الفضائل كجده
بل كانت مطامحه منحصرة فى الملك ، دون أن يعطى للمملكة حقها من
التضحية والبذل ، أى كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصاً ،
وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جده - هذا يفكر

في مجد أمته وبلاده ، وذلك في مجده الشخصي ، والفرق جد بعيد بين الاتجاهين . . . وإذ كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم الذاتي على أيدي أمراء مختلفي المنازعة والأهواء فقد فكر الفاطميون في ضمها إلى مصر لاسيما بعد أن تضاعف سلطان بغداد الروحي كما تضاعف سلطانها السياسي . . .

وقد عزز هذه الفكرة الرغبات التي أثارها بعض زعماء حلب الناقين على حكم أبي الفضائل من جهة ، وإغراء الوزير المغربي للخليفة الفاطمي بوحوب الاستيلاء على حلب وأطرافها من جهة أخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلة طيبة ، فجهز حملة كبرى إلى بلاد الشام لضمها إلى المملكة الفاطمية . وناط أمر هذه الحملة بأحد غلمانه الأتراك الذي استطاع أن يخضع البلاد الشامية كلها دون حلب التي امتنعت على مصر للخلعة المزرية التي انتهجها أميرها .
ماذا؟

استغاث أبو الفضائل بياسيل الثاني إمبراطور الروم لمحاربة الفاطميين . . . وبذلك اقترف أكبر غلطة سياسية بهذه الصلات التي خلقها مع أعداء البلاد الطبيعيين ، فهدم الحفيد بيديه الأثيمين ما بناه الجد . . . أي هدم هذا ؟ لقد مديده إلى الأجنبي - تحقيقاً

للنزوات الشخصية الهاجبة والأناية السوداء ، وقال له :
إن البلاد مفتوحة الصدر لكم . فيها ادخلوها مطمئنين قبل
أن يزيلنى ملك مصر الفاطمى عن عرش أبائى وأجدادى . .
وتتالت الأحداث والحروب مدة أربع سنوات كاملة بين
البيزنطيين والفاطميين كتب فيها النصر للفاطميين أولاً ثم للبيزنطيين
الذين بسطوا سلطانهم على بلاد الشام بفضل هذه المعاهدة أو بفضل
هذا الخضوع المزرى لأعداء الدين واللغة والعادات والشأج والدم ،
ولم يقف للفاطميون موقف المتفرج من هذه الأحداث بعد أن مست
سلطتهم ، بل جهزوا حملة ثانية لدفع البيزنطيين عن بلاد الشام ، فنجحوا
وسقطت حلب فى أيدي الفاطميين الذين قضوا على السياسة الخرفاء
التي انتهجها أبو الفضائل الذى اعتمد ، مع وزيره لؤلؤ ، على الأجنبي
فى توسيع شقة الخلاف بين مصر والشام .
وهكذا ، فقد مثلت ، فى تلك الفترة ، وفى بيئة المعرى ،
رواية من أفجع مآسى التاريخ هى نتيجة هذا الاضطراب السياسى
الذى ساد البلاد العربية كلها . فقد كانت الأطماع تتهدد بلاد الشام
من الشمال ومن الجنوب ، أما أطماع الجنوب فهما قيل عنها ، فهى
فى اعتقادى هيئة يسيرة ، هى أطماع الفاطميين الذين يحكمون مصر

وهم يتون إلى العروبة بنسب عريق . أما أطاع الشمال فهي السيف
يحز العنق - أطاع الأعداء الطبيعيين لهذه الأوطان التي حماها
سيف الدولة فترة غير قليلة من مطاعمهم فجاء أبو الرذائل - أريد
حفيدة المسمى أبا الفضائل - يفتح صدره لهم ويمهد الأسباب لدخول
أعظم ثغور المملكة الإسلامية .

وإن كتب التاريخ لتقص لنا هذه الفترات بما يدمى القلب ويدمع
العين . وليس كالأديب رجل تعاف نفسه شرور السياسة وشرور
الحروب والقتال . . وقد فكر في بقعة تكون في معزل عن هذه
الشرور ، فرأى بغداد أهدأ حالا من الشام ، وهي الى هذا كعبة
العلم والأدب ، فشد إليها الرحال . ومكث فيها سنة وبعض سنة فما
الذي أفاده من هذه الرحلة التي تركت في نفسه أجمل الذكريات ؟
لقد خرج بفكرة لاغموض فيها ، وهي أن الانسان ، بالرغم مما لقيه
من كرم البغداديين وحسن وفادتهم ، هو هو في جبلته وطبيعته ،
وأن الحكام هم هم في كل مصر ووطن . وانتهى إلى الرأي
تلاقى وروح فلسفته الحزينة التي تقوم على الشك واليأس :

وإن الشام مذموم صفران ما بهما للملك سلطان
شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

وعاد الى وطنه ، وإذا التنافس على أشده ، وحلب تشهد من جديد هذا الصراع الدامى فى أرضها ، وشهد أبو العلاء هذا الصراع بين أحفاد الحمدانيين أو غلمانهم والمتغلبين من أعراب الشام وعلى رأسهم صالح بن مرداس ، ثم بين المرديسين والفاطميين ، وأخيراً بين المرديسين وغلمانهم الذين ثارت فى نفوسهم شهوة الحكم أيضاً مما لا يسمح المجال لأن نتص تفاصيله بأسهاب .. نعم ، شهد فيلسوفنا الحكيم هذا الصراع الدامى المتعاقب ، وبديهى أن تولد هذه الأحداث وأن يكون لعواملها الأثر الأكبر فى فلسفته وأدبه :

فأبو العلاء أديب حساس ، وشاعر عميق التفكير وفيلسوف حر ذو نظرة نافذة ، رأى وطنه نهياً للأهواء والشهوات ، ورأى البلاد العربية وقد انتهت الى ما انتهت اليه من الضعف والاضطراب والفوضى — بديهى أن يؤثر ذلك فى أدبه ، وأن تشيع روح السخرية فى هذا الأدب ، وأن يقسو قسوة مرة على من يظهرون بصور من ملائكة الرحمن بينما هم أبالسة فى إهاب إنسان .

لقد آلمته هذه الأحداث العاتية التى هزت البلاد العربية من أقصاها الى أقصاها .. وامله فكر بالنزوح عن وطنه .. ولكن الى أين والدنيا العربية فى لهيب محترق من الفوضى .. لقد فكر بالهجرة

الى الحجاز .. ولكن ..

أما الحجاز فما يرجى المقام به
والشام فيه وقود الحرب مشتعل
وبالعراق وميض يستهل دما
وراء سد بقاء الشر يرتجز

لأنه بالحرار الحمس محتجز (١)
يشبه القوم شدت منهم الحجز (٢)
وراء سد بقاء الشر يرتجز

إلى أين يذهب ؟

كل البهلاء ذميم لا مقام به
إن الحجاز عن الخيرات محتجز
والشام شوم وليس اليمن في يمن
وان حلت ديار الوبل والرهيم
وما تهامة إلا معدن التهم
ويثرب الآن تريب على الفهم

كان يفكر فيلسوفنا بالهجرة الى أية بقعة عربية قد دخلت من فساد
عصره ومخازيه ، وقد ود أكثر من مرة الخلاص من هذا المأزق :

كيف التخلص والبسيطة لجة
فسد الزمان فلا رشاد ناجم
والجو غيم بالنوائب يسجم
بين الأنام ولاضلال منجم
الى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد والشرور ؟

قبع في بيته ، في سجنه الضيق ، وأخذ يرسل صيحاته الصادقة

(١) والحرار ، جمع حرة ، وهي أرض ذات حجارة سود بمنجرة كأنها أحرقت بالنار ،
والحرار الحمس : هي حرة شوران ، وحررة ليلى ، وحررة واقم ، وحررة النار ، وحررة
نخى سليم (٢) الحجز جمع حجاز وهو كل ما تشد به وسطك لتشم ثيابك .

فى تصوير طباع البشر — طباع أولئك المسيطرين على دفة السياسة،
التربعين على دست الحكم وقد نسوا أمنيات شعبهم ، ونسوا أولى
واجباتهم كخدام للمصلحة العامة ، فكانوا مطية الأهواء ومطية
الشهوات دون أن يفكروا بالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتقهم
وهى خدمة الشعب وإيهم أجراؤه لا أسياده :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلمو الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وليس كالمعرى أديب شاعر عرف سجايا البشرية وطواياها
فوصفها أبلى وصف كما وصف هذه الشهوات التى كانت لا تعرف غير
النهب والاستلاب . فكان ، رغم عزلته ، ذا اتصال مباشر بهذه
القضايا التى تشغل الشعب سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية
أو الاجتماعية أو الخلقية . . .

فى الواقع ، أن أبا العلاء قد اعتزل البشر ، ولكن هل كان
هذا الشيخ الوقور الذى يعتبر حكيم العصر وفيلسوفه بحق ؛ بعيداً
عما يمثّل على مسرح البشرية ؟ . . . كلا . إن عزلته لم تحصنه عن
شكاوى الأفراد والجماعات . وكانت شخصيته الفذة تجتذب الناس
على اختلاف طبقاتهم الى سجنه المتواضع ، يحل قضاياهم ومعضلاتهم

ويتوسط لدى أولى الأمر برقع ظلاماتهم . وقصة عصيان أهالى المعرة على سياسة أمير حلب صالح بن مرداس ، وإلقائه القبض على سبعين شخصاً من زعمائها ، وتجهيز حملة للقضاء على مثيرى تلك الفتنة ولجوء كبار القوم الى أبي العلاء ليشفع لهم لدى صالح وقبول ابن مرداس شفاعته . - إن هذه القصة تدل دلالة بالغة على أنه كان على اتصال بما يجرى على مسرح السياسة ، وأن القوم لم يتركوه يتمتع بعزلته . وهذا ما كان له أكبر الأثر فى أدبه ، ولو اعتزل البشر حقاً كالرهبان المتبتلين أو الصوفيين المتجردين لكان لونه أدبه يختلف كل الاختلاف عن هذا اللون المغموس بأعماق النفس البشرية .

وفى اللزوميات ، وفى رسائله نقرأ الكثير من هذه اللزمات التى تصف اضطراب السياسة ، وسوء الإدارة ، وفساد الحكم .

فالسبب الذى تسير على الأهواء والنزوات ، ولا تستند على الفكر الرشيد المتزن - هى فى نظره - سياسة خرقاء ..

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال سياسة فأف من الحياة وأف منى ومن زمن رئاسته خساسة هذه السياسة المضطربة التى غمرت يديته وكل بقعة من الأرض

العربية هي التي كانت تستثيره ليصف هذه الأهواء الجاحمة . لقد تساءل أكثر من مرة كيف لا يثور الشعب ضد تلك السياسة الفاشية؟ كيف يدفع الأفراد الضرائب والمكوس وهم يشاهدون ملوكهم وقد أصبحوا عبيد الشهوات والذادات ..

وأرى ملوكا لا تحوط رعية فعلى م تؤخذ جزية ومكوس؟

* * *

وجدت الناس في هرج ومرج غواة بين معتزل ومرجى
فشأن ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الأمر جباة خرج

* * *

أتعجب من ملوك الأرض أمسوا للذات النفوس عبيد قن
فيا لذلك العصر الذى عاش فى صميمه ، لا هم لملوكه وزعمائه
إلا لذاتهم وأهواؤهم ، وإلا مصادرة أمزال الناس ، وإشاعة
الفوضى فى البلاد . والزيف فى قرارة النفوس - هذا العصر المضطرب
الذى عاش فى أعاصيره وأهوائه قد جعله ، ونفسه أميل الى التشاؤم ،
ينظر إلى الدنيا هذه النظرة السوداء ، ويراهها على حقيقتها ، أى أن
شروطها يرى أغلب ..

عرفت سجايا الدهر أما شروره فنقد ، وأما خيره فوجود
إذا كانت الدنيا ، كذلك نخلها . ولو أن كل الطالعات تعود

رقدنا، ولم يملك رقداً عن الأذى وقامت بما خفنا ونحن تعود

* * *

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا . . مافي البرية جيد
فأميرهم نال الإمارة بالحننا وتقيمهم بصلاته متصيد
لقد سئمت نفسه هذه المخازي — هذا التنازع على إمارات
كاذبة ، هذه المذاهب الاجتماعية والسياسية التي شاعت في عصره
والتي كانت في مظهرها ذات رواء جميل . . ولكن من هم رجالها
من لا تظمن إليهم النفوس . . من صميم الشعوبيين ^(١) . . كان يرى

(١) كان ينكر الشعوبيون كل فضل للعرب ، وقد شبه أحد الكتاب مبادئهم بمبادئ
الشويعيين في عصرنا هذا . وكان الشعوبيون يقولون بما سواة الأفراد والطبقات ، ومن
أقوالهم في الرد على العرب أن النبي نفسه سألوا بين المسلمين على اختلاف مللهم بقوله :
« ليس لعربي على عجمي من فضل إلا بالتقوى » . وكان الشعوبيون ينوبون بدفاعهم عن
كل أمم الأرض في ذلك العهد — أي في العصر العباسي — إلا العرب ، فإذا افتخروا
بملوكهم ذكروا الفراعنة والهند والغالقة والاكاسرة والقياصرة وافتخروا بسليمان
الحكم والاسكندر الكبير وملوك الهند . وإذا فاخروهم بالانبياء والمرسلين ذكروا
الانبياء من آدم الى أيامهم . وإذا فاخروا بالعلم والصناعة والفلسفة ذكروا اختراع
لعبة الشطرنج ورمانة الثعبان والاسطربلاب وغفروا بفسلة اليونان واشعارهم وهلومهم
وهلوم الهند والفرس وغيرهم .

وذكر صاحب العقد الفريد أنه بلغ من جواراة بعض أنصار للشعوية أنهم كانوا
يقولون : « ما الذي تفخر به العرب على العجم ، فانما هي كالفئانب العادية والوحوش
الظفيرة بأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسم
ونسأوها سبايا مردفات على حقايب الابل ، واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال
العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض ونظمو المطاعن فيهم ، مع أن الكثيرين من كتاب العرب
ومؤرخيهم قصدوا الرد على الشعوية ومنهم ابن قتبية في « تفضيل العرب » الهلال سنة ٤٣٣ هـ / ١٢٢٣

في هذه المذاهب الشائعة التي سادت عصره وسيلة للسيطرة والحكم،
فما كان أصحابها ليقتصدون المثل العليا في مذاهبهم التي ابتدعوها
ودعوا إليها ، سواء منهم القرامطة (١) أو غيرهم .

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
أولئك الرؤساء الذي عرف خبيثة طواياهم فازدراهم شرارذراء ،
هم الذين كانوا يثيرون الفتن والحروب في سبيل مظالمهم الدنية
وأجسادهم الكاذبة .

كانت هذه الفتن وما تجره وراءها من إرهاب — تستثيره
ضميره . فما كان شعوره المرهف يتحمل أية مظلمة ، وهو الذي
عاش في أفق واسع من فرديته الحرة برغم سجونته الثلاثة — هذا
التأثر الحر الذي انتصب يدافع عن كرامة العقل ، وعن حرية الفرد
وحرية الجماعة ، قد أهاب بالانسان أن يثور على المظالم ، وطلب إلى
المفكرين الذين يساهمون في سياسة الدولة أن يتحرروا هم أيضاً

(١) فرقة من الباطنية، والباطنية هم الاسماعيلية ، وإنما لقبوا بهذا اللقب لحكمهم
بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً . هذا هو الوجه الظاهر لهدوتهم أما الحقيقة
فهي فرقة سياسية غايتها قلب نظام الحكم . وكان رئيسها عبد الله بن ميمون ، وهو فارسي
يكره العرب . استطاع أن يؤلف بين أهل الايمان وبين الرنادقة . وأن يجعل منهم
حزباً يعمل على قلب الدولة العباسية .

من الرياء الاجتماعى والألّا يكونوا آلات مسخرة فى أيدى العتاة ،
يميلون مع الهوى دون أن يستجيبوا النداء الضمير . لقد غمز الأدباء
والشعراء والخطباء — الخطباء الذين يصفون الأمير بالتقوى أيام
الجمع على حين أنه فى الهوى والضلال . .

ما أجهل الأمم الذين عرفتهم ولمل سالفهم أضل وأتبر
يدعون فى جمعاتهم بسفاهة لأميرهم ، فيكاد يبكى المنبر
نعم يكاد يبكى المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرأى الذى
يخدع الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقةها ، لافى الشؤون
السياسية بل فى الشؤون الاجتماعية ، فيصفه بقوله :

طلب الخسائس وارتقى فى منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بتيامة أمسى يثل فى النفوس ذهولها
والأدباء والشعراء . . هل يؤدون رسالتهم السامية فى هذا
المصطرع الصاخب كما يؤديها هو ؟ إن رسالة الأدب رسالة مقدسة
لا يجوز التهاون بها . . وكما غمز الخطباء المشعوذين ، فقد غمز الشعراء
المداحين الذين يتخذون الشعر آلة لتشويه الحقائق الساطعة .

بفى الآداب غرتكم قديماً زخارف مثل زمزمة الذباب
وما شعراؤكم إلا ذئاب تلصص فى المدائح والسياب

لقد اضطرب كل شيء في نظره - اضطربت مقاييس الحياة
واختل النظام ، ولم يعد ينظر إلى الحياة إلاّ هذه النظرة السوداء
البغيضة التي تنطوى فيها خيوط فلسفته التشاؤمية .

قد اختل الأنام بغير شك فجدوا في الزمان أو العبوه
نعم ، كل شيء عنده يدعو إلى اليأس ، فالحياة رواية من الروايات
الكاذبة ، والإنسان يخادع أخاه الإنسان ، اليوم يرتفع به إلى
السماء ، وغداً يشك بنزاهة قصده فيبهط به إلى مواطئ الأقدام...
حياتك هجمة : سهد ونوم ورؤيا هاجع ما أنقته
فمن حلم يسرك أبطلته ومن حلم يضرك حققته
وكم أدى أمانته إليها أمين خوته وسرقته
وقام أمة زكته عصراً فلما أن تكن فسقته
هذه هي أهواء الجماعات لا تكاد ترتفع بالرجل الذي أحبته
حتى تهبط به الأرض ، لا تكاد تؤله حتى تعتبره رمزاً للخيانة .
وبعد ، فقد كدنا ننتقل من تصوير عصره إلى آرائه في الحياة
ولكن هل هذه الآراء إلا صورة ذلك العصر بالمخازي والموبقات
مخازي السياسة الرعناء التي كان لها أبلغ أثر في انهيار الأمة العربية
ذلك الانهيار الذي ذاقت مرارته العصور الطوال . . نعم ، كدنا

ننتقل من تصوير الاضطراب في عصره السياسى إلى آرائه فى الحياة
تلك الحياة التى سئم أضرارها وأضاليلها ، فنظر إليها هذه النظرة
الفلسفية المتعالية . . كيف يحتمل هذه المحازى ؟ كيف يدفع هذا
الطغيان ؟ لاحيلة له إلا الشعر — هذا ينبوع الثر الذى يبرد غليل
الموتورين المتشائمين . .

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
والشر فى العالم حتى التى مكسبها من فضل عرناسها
وكل حى فوقها ظالم ومابها أظلم من ناسها
وبعد فنتساءل : وقد عاش شاعرنا الحكيم فى سجوف هذا
اليأس الحزين يهدم وينقد ويهاجم ، هل كانت له رسالة فى الحياة ؟
مالون هذه الرسالة ؟ كيف يريد أن يكون العالم ؟ لقد أراد له الخير
المحض . وأراد له العدالة الاجتماعية المطلقة ، وأراد الهنائة المثلى
لل بشرية ، فهل تحتمت رسالته ؟ كلا . . فقد اصطلمت هذه الميول
الطيبة بغيريزة الإي نسان ونزعته الشريرة - فترأت له الدنيا ، فى
مرآة تشاؤمه ، وعلى ضوء الأحداث التى واجهت عصره - صورة
من المآثم والشرور ، فيئس ، وجره هذا اليأس الحزين إلى العزلة
- تلك العزلة التى أنتجت للأدب الحى ثروة خالدة ترمز إلى جبروت

في سب
واللذاذا
سوء في يده
ومزاجه السود
ما كان لهذه الحية

يعتبر نسيج وحده بين اداب
الكثير من الآراء والفكرات والصور التي تتدرج
ماخلده أ كابر أدباء العالم في مختلف العصور . نعم ، إننا نجد مثلاً
في حدائق أبي العلاء العابسة الكئيبة تشاؤم شو بنهور وسخرية
أفانول فرانس والكثير من هذه المذاهب والفكرات الشائعة في
عصرنا هذا ؛ ففلسفته لم تقف عند واحات الزهد والعزلة بل تعدتها
إلى الأخلاق والسياسة والاجتماع والدين والإنسان والخالق ، فأوضح
رأيه صريحاً في جميع ظواهر الحياة ، ما ظهر
الإشترافية التي

